الفصل الخامس

ايليا أبو ماضي: حياته ومساهمته الأدبية

(١) ايليا أبو ماضي: حياته

(٢) إيليا أبو ماضي: شعره

أ) أبو ماضي: شعره بين التفاؤل والتشاؤم

ب) أبو ماضي: شعره القصصي

(٣) إيليا أبو ماضي: أسلوبه

(٤) آراء النقاد على شعر أبي ماضي

١- ايليا أبو ماضي: حياته

ولـــد إيليا أبو ماضي عام ١٨٨٩[1] في قرية لبنانية تدعى "المحيدثة" الواقعة على مقـــربة مـــن بكفيا، هي منطقة عرفت لدى الجغرافيين باسم "المتن الأعلى" في جبل لبنان. وهي المنطقة الشهيرة بصفاء مناخها وجمال طبيعتها وفرة مياهها وكثرة الفواكه والأزهـــار فـــيها والمحـــيدثة قرية تجثو عند أقدامها التلال والأودية وتفر فيها أشجار الصـــنوبر والســـنديان المتعالية. وقد اختلفت آراء مؤرخي حياة إيليا أبو ماضي عن تـــاريخ ولادتـــه. فجريدة "السائح" في عددها الممتاز لعام ١٩٢٧ تذكر أن ايليا أبو ماضـــي ولـــد عام ١٨٨٩. فلا بد أنها أخذته من الشاعر نفسه، ولذلك ظل تاريخ "السائح" هو التاريخ الذي يعتمد عليه كل من يكتب عن أبي ماضي. ولكن ذكرت جريدة "الحياة" في ١٩٥٧/١١/٢٤ أنه أبا ماضي ولد عام ١٨٩٤م. وكذلك ذكرت جمـــيع الصـــحف والإذاعات التي أذاعت نبأ وفاته أن قد توفى عن ٦٤ عاما. وإذن تكـــون كل هذه القارير متفقة على أن عام ١٨٩٤م هو التاريخ الصحيح لمولده[2] مع أنه يبعد خمس سنوات عن التاريخ الأول الذي جاء في رواية "السائح" ونشأ ايليا أبو ماضي في مقسط رأسه صغيراً. ولا نعرف عن والده ضاهر أبي ماضي شيئاً، ولا يزكر

---

[1] ولكن الأستاذ محمد قره على، في مقاليه المنشورين في جريدة "الحياة" اللبنانية على أثر وفاة الشاعر، يقول: "إنه سأله عن تاريخ مولده، حين زار لبنان عام ١٩٤٨، فأجابه أبو ماضي بأنه ولد عام ١٩٨٠ وهذا خطأ طباعى واضح، وهو حتما يقصد عام ١٨٩٠. كما ذكر جورج صبدح في كتابه "أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية" أن أبا ماضي ولد عام ١٨٩١م. وهو أيضاً خطأ أنه نفسه يشير إلى رواية جريدة "السائح"

[2] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٣

عـــنه احد ممن كتبوا سيرة الشاعر،[1] ولكن يبدو من مجمل الظواهر والوقائع أن والده كـــان رقـــيق الحال، منصرفا إلى عمل ريفي كان يمارسه أهل تلك المنطقة في ذلك الـــزمن، وهـــو تربية دود القزّ والعناية بأشجار التوت. أما أمه فلم يعرف عنها شيئاً وكان ايليا أبو ماضي نفسه ضنينا بهذا الجانب من حياته حريصا على إبقائه في الظلّ.[2] ودرس أبو ماضي علومه الأولى في المدرسة الإبتدائية من تلك القرية الصغيرة. وسافر إلى الإسكندرية في مصر عام ١٩٠١م[3] عندما كان في الحادية عشره من عمره.

فاشـــتغل في بيع السيجارة والدخان واستغل أوقات فراغه (الليل) في المطالعة والـــدرس ونظـــم الشـــعر[4] على طريقة محمود سامي البارودى، رائد الشعر العربي الحديـــث، وإسماعـــيل صـــبري، الشاعر الكلاسيكي، والتي تابعها أحمد شوقي، أمير الشعراء وحافظ ابراهيم،الشاعر النيل.[5] وقد أورد محمد قره علي، باحث في سيرة ايليا أبي ماضي رد ابن ماضي نفسه على سؤال لـــه حول هذه الفترة من حياته وهو كما يلي: "....وفي الإسكندرية تعاطيت بيع السجائر في النهار في متجر عمى، وفي الليل كنت أدرس النحو والصرف، تارة على نفسي، وتارة في بعض الكتاتيب. وقد أقمت في الأراضي المصرية أحد عشر عاماً، نظمت خلالها ديوانا من الشعر."[6]

وكان ايليا أبو ماضي يتصل بإخوانه اللبنانيين في الإسكندرية، فحدث مرة أن

---

[1] عبد اللطيف شراره: ايليا أبو ماضي، دار صادر، بيروت، ١٩٦١، ص٧٠

[2] المصدر السابق، ص٧

[3] كمـــا ذكر محمد قره على في جريدة "الحياة" نقلا عن ايليا أبي ماضي نفسه وراجع أيضا: د. جميل جبر، لبـــنان في روائع أقلام، ص٩٩، ولكن يروى جورج أنه هاجر إلى مصر عام ١٩٠٢م، راجع: صيدح، أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٥.

[4] جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٥

[5] عبد اللطيف شراره: إيليا أبو ماضي، ص٨

[6] نقلا عن عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٤

أطلـــع الأستاذ أنطون الجميل على بعض منظوماته الأولى فأعجب هذا به واستحسن منظوماته ونشر لـــه بعضها في مجلة "الزهور" التي كان يصدرها في ذلك الحين: كما يذكر الأستاذ نجدة صفوة، كاتب وباحث عن سيرة ايليا ابو ماضي:

> ان ايليا أبو ماضي رحل إلى مصر "ليتعاطى التجارة، وقد اتخذ لنفسه محـــلا يبـــيع فيه السجائر والدخان وأخذ يستغل أوقات فراغه في المطالعة والدراسة ونظم الشعر الذي اظهر فيه منذ صغره قابلية تنبئ بمســـتقبله. ووقع عليه الأستاذ انطون الجميل فراه يكتب شعراً في الدكـــان فقـــرأه وأعجـــب به ونشره في مجلة "الزهور" التي كان يصدرها.[1]

ونشأ ايليا أبو ماضي في الجو الفكري والروحي خلال إقامته في مصر بين ١٩٠١ و ١٩١٢م أنه شب وتنامى وسط عالم يتطلع إلى النور، ويؤمن بالحرية، ويتـــلمّس سبيله إلى الكرامة الإنسانية والعدالة الإجتماعية، وينادي بالمساواة بين الجنســـين أي بـــين المرء والمرأة.[2] وكل وسائله إلى بلوغ هذه الأهداف: الفكر، ونشـــر الفكـــر، والتبشـــير بالأفكـــار الجديدة، عن طريق الصحف، والمطابع، والأندية، والجمعيات الأدبية. يذكر ايليا ابو ماضي باسهاب في قصيدته "الميمية" شـــيئا هاماً عن إقامته ونشأته في الجو الفكري والروحي في مصر، فيتوضح منها ذاك الحـــنين الصامت لأيامه الجميلة التي قضاها هناك، وكما يتوضع إلى جانب ذلـــك فيها اليأس من الناس ويتحدث عن ذكرياته في مصر وعن أخلاق الناس فيها قائلا:

---

[1] نقلا عن عيسى الناعور: أدب المهجر، ص٣٦٤

[2] عبد اللطيف شراره: ايليا أبو ماضي، بيروت، ١٩٦١، ص٩

لـــيس الوقوف على الاطلال من خلقى ولا البكاء على ما فات من شيمي
لكـــن (مصـــراً) ومـــا نفسي بناسية ملكـــية الشرق، ذات النيل والهرم
صـــرفت شطر الصبا فيها فما خشيت نفسي العثار، ولا نفسى من الوصم
في فتـــية كالـــنجوم الزهـــر أوجههم مـــا فيهم غير مطبوع على الكرم
لا يـــقبضون مـــع اللأواء أيـــديهم وقـــلما جـــاد ذو وفر مع الازم[1]

ولعـــل هذه القصيدة خير "وثيقة" عن حياة الشاعر في مصر،[2] لأنه لا يكتفى بهذا الذي قاله وانما يستمر في مدح مصر طوال خمسة عشر بيتا يصوّر مصر فيها بأنها درة تاج الشرق، وحاملة علم الشرق العربي.

فكـــان إيلـــيا أبو ماضي يشتغل بالتجارة وينظم الشعر وينشر منه في المجلات والصـــحف حـــتى عرفه المصريون والمهاجرون اللبنانيون.[3] وجمع مجموعة من قصائده وأبـــياته في ديوانـــه الأول الذي أصدره عام ١٩١١م[4] في الاسكندرية وسماه "تذكار الماضي"[5] وأهداه إلى الأمة المصرية بهذه الكلمة: "أيتها الأمة الودودة هذا ديواني الذي نظمته تحت سمائك وبين مغانيك أرفعه إليك لا طلبا للمثوبة ولا ابتغاء للشكر ولكن إظهار لما تكنه جوانحي من العطف عليك والتعلق بك."[6]

وفي عام ١٩١٢م هاجر ايليا أبو ماضي إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن

---

[1] نقلا عن: زهير ميرزا، ايليا أبو ماضي: شاعر المهجر الأكبر، ١٩٦٣، ص٢١

[2] المصدر السابق، ص٢١

[3] نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٢٢

[4] M.M. Badawi, "A critical Appriciation of Modern Arabic Poetry" 1975, p. 189

[5] محمد يوسف كوكن: أعلام النثر والشعر، ج٢، ص٨٢

[6] نقلا عن: جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٥

أمضـــى أكـــثر من عشر سنوات في مصر.[1] فأقام في مدينة "سنسناتي" (Cincinnati) أوهـــايو واشتغل بالتجارة مع أخيه الأديب مراد أبو ماضي[2] وقضى أربع سنوات في شـــبه عـــزلةٍ عـــن الكثير من الأحاسيس والانطباعات والتأملات، ويمر بالكثير من التجارب النفسية في هدوء وتعمق، ويطالع ما يصل إلى يديه من آثار، ويطلع على ما يحول في أمريكا من حركات واتجاهات روحية، ويتمثلها في صمت واستقرار.[3]

يقـــول جورج صيدح عن تأثير لهذه السنوات الأربع على شاعريته قائلا: "إن هـــذه السنوات الأربع التي قضاها بعيداً عن دينا الأدب، كان لها تأثير على شاعريته، فقـــد تطورت بسرعة عجيبة، حتى غاب عن قصائده المنظومة في خلالها ذلك الشاعر المقلد... الذي كان شأنه في مصر شأن غيره من الشعراء."[4] وأجاب ايليا أبو ماضي نفســـه في رد على السوال لمحمد قره على: "هل ألهتكم التجارة عن الشعر؟" فيقول كلا، بل ازدادت شاعريتي وتطورت تطوراً عجيباً."[5]

ولقد اختلف المؤرخون في أسباب هجرة ايليا أبو ماضي الى الولايات المتحدة فيذكر الأستاذ نجدة فتحى صفوت أن سبب هجرته اليها يرجح أنه واحد من ثلاثة: "أولها: مهاجمة ديوانه "تذكار الماضي" في مصر مما أزعجه وأقلق باله وأظلم الدنيا في عينـــيه. وثانيها: فشله في تجارته بمصر وأما السبب الثالث فهو أنه منذ البداية كان قد اتخـــذ السفر إلى مصر خطوة أولى تمهد للهجرة الثانية إلى أمريكا. وعلى الأرجح أن

---

[1] احمد قبش: تاريخ الشعر العربي الحديث، ص٣٠٣ وراجع أيضا: وعيشى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٥

[2] تـــوفى مـــراد ابو ماضي بعد وفاة شقيقه ايليا أبو ماضي. وله كتاب وحيد بعنوان "السنابل" يحتوى على مجموعة مقالات كان يكتبها مراد من حين إلى آخر وقد أصدره عام ١٩٥٢م.

[3] عبد اللطيف شراره: ايليا أبو ماضي، ص٢١٣

[4] نقلا عن: الناعورى، أدب المهجر، ص٣٦٥

[5] المصدر السابق، ص٣٦٥

السبب الثالث الذي ذكره الأستاذ صفوت يبدو سببا ومقبولا عليه.[1]

وإنـــتقل ايلـــيا أبـــو ماضي إلى نيويورك عام ١٩١٦م على دعوة من البعض الشـــباب العـــربي الفلسطيني يعهدون اليه بتحرير المجلة العربية التي كانوا يصدونها في نيويورك. فقبل الدعوة ورياسة تحرير تلك المجلة و لم يطل الوقت حتى أسهم في تحرير مجلة "الفتاة" التي كان يصدرها شكري البخاش في عام ١٩١٨م ثم انصرف إلى تحرير جريدة "مراة الغرب" لنجيب دياب عام ١٩٢٨م وترك هذه الجريدة وبدأ ينشر مجلته "المسير" منذ نيسان عام ١٩٢٩م كان يصدرها مرتين في كل شهر وفي عام ١٩٣٦م حولها إلى جريدة يومية كما يقول ايليا ابو ماضي بنفسه في هذا الصدد:

انتقلـــت إلى نيويورك عام ١٩١٦، إذ تلقيت دعوة من بعض الشباب العربي الفلســـطيني يعهدون إلى بتحرير "المجلة العربية" التي كانوا يصدونها في نيويورك قبلت الدعوة وأرست تحرير المجلة المذكورة، و لم يطل الوقت حتى أسهمت في الزميلة "زحلة الفـــتاة" الـــيوم. وفي عام ١٩١٨ انصرفت إلى تحرير جريدة "مرآة الغرب" وفي عام ١٩٢٨ تركت "المرآة" وفي نيسان ١٩٢٩ أصدرت مجلة "السمير"، وكنت أصدرها مرتين في كل شهر. وفي سنة ١٩٣٦ حولتها إلى جريدة يومية.[2]

وعمل محرراً في الصحف العربية مدة عشر سنوات كما ذكرنا آنفا. وتعرف عـــلى أعضـــاء الرابطة القلمية في نيويورك وظهر اسمه بين الكتّاب والشعراء في تلك المديـــنة، وعـــرفه الناس شاعراً وصحفيا،[3] وفي نيويورك أصدر الجزء الثاني من ديوانه

---

[1] جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص٣٢٣

[2] نقلا عن: عيسى الناعوري: أدب المهجر، ص٣٦٥ وما بعدها

[3] نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٢٦

المســـمى "ديوان ايليا أبو ماضي" عام ١٩١٩ بمقدمة جبران خليل جبران.[١] الذي أعجـــب بـــه اعجابا بالغا[٢] و لم يكن ايليا أبو ماضي من الذين حضروا الاجتماع الأول للرابطة القلمية[٣] ولكنه انضم اليها في وقت غير متأخر وأصبح من أنصارها العـــاملين وأعجب زملائه في الرابطة بأصالته الشعرية وذكائه واطلاعه فشجعوه وعاونوه.[٤]

وقـــد تـــزوج ايليا أبو ماضي السيدة "دوروتى"، إبنة نجيب دياب، صاحب جـــريدة "مرأة الغرب" وقد اقترن بها عندما كان يعمل في هذه الجريدة.[٥] ورزق ثلاثة أولاد أكبرهم "رتشارد" (Richard) الذي تزوج من فتاة أميركية إسمها "مارى لويز"، وهـــو مـــن علماء الذرة الذي كان يحمل درجة دكتوراه في العلوم الطبيعية، وكانت لويـــز تحمـــل 'درجة أستاذ علوم' في علم النفس والثاني "روبرت" (Robert) الذي انصـــرف إلى الحياة العسكرية يعمل في جيش الطيران والثالث كان مريضا لا يتعاطى عملا. وكلهم أميركيو الجنسية.[٦]

وبعد التعرف إلى جبران وتوثيق العلاقة بأعضاء الرابطة القلمية الآخرين إشترك ماضي في تأسيس الرابطة وعمل مثلهم على تعزيزها وتحقيق غاياتها وتأثر بروح جبران ونـــزعة نعيمة.[٧] ولكنه لم يستسلمهما لتيار لم يقطع صلته الصوفية و مع واقع المجتمع

---

[1] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ١٩٦٧، ص١٣٢

[2] الدكتور عبد الكريم الأشتر، النثر المهجري، ط٣، ص٥٠ أنظر: حاشية الكتاب

[3] عبد الغني حسن: الشعر العربي في المهجر، ص١١٥

[4] نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٢٦

[5] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٦

[6] عبد اللطيف شراره: ايليا أبو ماضي، ص١١٨

[7] جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٨

مهمـــا حلـــق مهما بالخيال. كما أنه لم يغرق في العالم الميتافيزيقي و لم يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح.[1] كما فعل جبران ونعيمة أثناء احتكاكهما بالرابطة القلمية ونضجت شاعرية أبي ماضي تحت لواء الرابطة القلمية وبلغت قمة نضجها تدريجا،[2] فكان شعره بابـــاً لشـــعر المهجر الجديد في روحه وأفكاره وخيالاته وصياغته. وصار رائدا لشعر المهجـــر.[3] فإن أبا ماضي استقل بشخصية شعرية قوية وإن يكن قد تأثر أحيانا أفكار جـــران في لمحات من بعض قصائده "بوحدة الوجود" عقيدة جبران الكبرى ولكنه لم يـــتخذها مذهـــبا فكريا كما اتخذها جبران ميخائيل نعيمة[4] والحقيقة أنه لولا وجود هـــؤلاء الثلاثة نعني جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي في الرابطة القلمـــية مـــا كان للرابطة القلمية شيء من ذلك الأثر البعيد في المحيط الأدبي، الذي أحدث انقلابا كبيراً في مفاهيم الأدب العربي وأساليبه في الأقطار العربية.[5]

كان إيليا ابو ماضي شاعراً عظيما ولكنه كان إلى جانب ذلك صحفيا موفقا رغـــم أن الصحافة لا تقوم على الشعر. وقد مارس أبو ماضي العمل الصحفى، كما اسلفنا القول. فعمل محرراً في عدد من الصحف أنشأ جريدته "السمير" في ابريل عام ١٩٢٩م بنـــيويورك كمجلـــة شهرية واتخذ مكتبا لها في شارع واشنطون،[6] وجعلها نصف شهرية لمدة سبع سنوات ثم حولها إلى جديدة يومية في عام ١٩٣٦[7] وظل ايليا

---

[1] المصدر السابق، ص١٨٨

[2] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٧

[3] المصدر السابق، ٣٦٧

[4] المصدر السابق، ص٣٦٨

[5] المصدر السابق، ص٣٦٨

[6] جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا، ص١٩٧

[7] الدكتور جميل جبر: لبنان في روائع الأقلام، ص٩٩

أبو ماضي يحررها حتى وفاته في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٥٧[1] وكان لـــه في كل عدد من أعدادها نشاط قلمي كثير وعالج في افتتاحياتها عدة أمور المجتمع وعـــدة مشاكل السياسية العربية والعالمية وقضايا وطنه العربي وأحيانا شؤون الأدب العربي. والحقيقة أن ايليا أبا ماضي لم يكن قوي العبارة في نثره كما هو صافي العبارة في شـــعره[2] ولكنه في عمله الصحفى كان مجبرا على أن يكتب النثر باستمرار، إن لم يشـــتهر بـــين الـــناس ناثـــراً بليغا ولكنه كان كثيرا ما يوفق في مقالاته النثرية وافتتاحياته التي يكتبها بروحه ومشاعره[3] وقد كان يكتب على صدر مجلة "السمير" بيتين من الشعر شعارا لها هما أصدق تعبير عن روح الشاعر لـــه وعاطفته الأدبية[4] فهما كما يلي:

أنا لا أهدى إليكم ورقا غيركم يـــرضى بحبر وورق

إنما أهدى إلى أرواحكم فكرا تبقى إذا الطرس احترق

ويشـــهد فيليـــب دي طرازى، بأن مجلة "السمير" قد كانت تعد حينذاك من أوسع المجلات العربية إنتشاراً في الولايات المتحدة الأمريكية.[5]

وفي أواخر عام ١٩٤٨ عاد ايليا أبو ماضي إلى وطنه الأصلي لوقت قصير يمثل هو والأستاذ حبيب مسعود، رئيس التحرير لمجلة "العصبة" في البرازيل، صحافة المهجر في مؤتمـــر اليونسكو (UNESCO Conference) الذي عقد حينذاك في بيروت، وكان في أثـــناء إقامـــته موضـــع الحفاوة العظيمة لدى الأوساط الرسمية والأدبية في لبنان

---

[1] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٩

[2] المصدر السابق، ص٣٧

[3] المصدر السابق، ص٣٧٠

[4] نقلا عن: الدكتور طفيل احمد: امريكة مين عربي شعر و ادب كا ارتقا، ص١٧١

[5] فيليب دى طرازي: تاريخ الصحافة العربية، ج٤، ص٤٢٩

وسوريا.[1]

وفي هذه الزيارة منحته الحكومة اللبنانية وسامي الاستحقاق والأرز، وأقيمت لـــه في ٦ فبراير عام ١٩٤٩ حفلة كبرى في دمشق برعاية الرئيس شكرى القوتلى الذي علق على صدره وسام الاستحقاق الممتاز.[2]

وقـــد قضى ايليا أبو ماضي السنوات الأخيرة من حياته يشكو علة في القلب اضـــطرته إلى دخول المستشفى في طلب العلاج مرتين، وكانت المرة الأخيرة في شهر حزيـــران مـــن عام ١٩٥٧ حيث اشتدت عليه وكادت تودى بحياته الغالية. ولكنه تغلـــب علـــيها وعـــاد إلى داره في أواخر شهر تموز وأخذ يتدرج في طريق الشفاء واســـتعادة نشـــاطه. وفي الســـاعة الرابعة من صباح يوم السب ٢٣ نوفمبر ١٩٥٧ اســـتقاق الشـــاعر يشـــكو ضيقا في أنفاسه، فأيقظ قرينته الفاضلة السيدة دوروتي، واســـتجدها لتســـعفه بأقراض من المنعشات كان يستعين بها في مثل هذه الحال... فطلـــب إلى الســـيدة قرينته ان تستدعى الطبيب، ففعلت ذلك في الحال. فلما جاء الطبيـــب وجده قد فارق الحياة.[3] وهكذا توفى ايليا أبو ماضي من صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر ١٩٥٧م.[4] كانت وفاة هذا الشاعر العبقري خسارة عظيمة للأدب العربي لأن مثله من العباقرة لا تجود بهم الأيام على ندرة.

---

[1] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٠

[2] المصدر السابق، ص٣٧٠

[3] الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧١

[4] المصدر السابق، راجع أيضاً: إلى الدكتور جميل جبر، لبنان في روائع الأقلام، ص٩٩

٢- ايليا أبو ماضي: شعره

يحـــتل إيليا أبو ماضي الزعامة في شعر المهجر فرأه زهير ميرزا، شاعر المهجر الأكبر، واعتبره عيسى الناعوري رسول الشعر العربي الحديث. وقد أجمع النقاد على أن ايلـــيا أبـــا ماضي هو بلا جدال أمير شعراء العرب في المهجر. وأعجب الناس في العـــالم العربي. المهجر بقصائده الرائعة مثل "فلسفة الحياة" و"ابنة الفجر" "وفي الليل والخلود" و"الطلاسم" وغيرها. وقد جمعت قصائده في أربعة دواوين تتناقلها الصحف والمجـــلات العربـــية والمذياعـــات ويتسابق إليها الناشرون،[1] كما تتغنى بها الألسنة، ويحفظهـــا الطـــلاب والطالـــبات في مقاعد الدراسة لأنها كنوز أدبية غنية بالصدق والجمـــال، نابضـــة بالشعور والحياة، دافقة بالسمو والغني الروحي. وكان ايليا أبو ماضـــي شاعراً أكثر انتاجا بين الشعراء المهاجرين في أمريكا الشمالية[2] ونريد هنا أن نبحث عن دواوينه واحد فواحدا.

(أ) ديوان "تذكار الماضي"

أصدر ايليا أبو ماضي الجزء الأول من ديوانه الأول عام ١٩١١م باسم "تذكار الماضـــي" وقد طبع بالاسكندرية في أثناء إقامته في مصر.[3] وهذا الديوان يحتوى على

---

[1] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٢

[2] R.C. Ostle: (ed). "Studies in Modern Arabic Literature, p 35

[3] زهير ميرزا: ايليا أبو ماضي، ص٢٣، راجع نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٢٧

خمـــس عشـــرة قصيدة في مواضيع وطنية. وهذه المجموعة من شعره كانت باكورة إنـــتاجه الشعري. فكانت الأشعار فيها غير ناضجة كما يرى الأستاذ زهير ميرزا "إن الشاعر كان ضعيف الثقافة، ضعيف التحصيل، ضعيف الاطلاع على مفردات اللغة، ضعيف الإلمام بقواعدها وأدواتها أيضاً".[1] والسبب أن أبا ماضي هاجر إلى مصر وهو عـــلى شيء من العلم بالقراءة والكتابة، ثم أخذ يطالع لنفسه مطالعات خاصة يلصها مـــن فراغه. وعندما نزح إلى أمريكا وقد أخذ نفسه بشيء قليل من القسوة والمرانة فـــلما أصـــدر ديوانه الثاني، كان لديه من آثار ثقافته اللغوية والنحوية ما هو جدير بالـــتدوين.[2] وتقول الأستاذة نادرة جميل سراج عن ضعف ثقافة الشاعر عندما نشر ديوانه تذكار الماضي":

> وأغلـــب الظـــن أن هذه الصفات كلها صحيحة منطبقة على شعر أبي ماضي في ذلك الديوان فماذا تنتظر من صبي في الحادية عشرة من عمره يـــأخذ نفسه بنظم القريض دون دراية بقواعد اللغة والعروض والنحو، وســـلاحه الوحـــيد شهادته الإبتدائية التي بها من لبنان؟ ولعل هذا هو السبب في أن ايليا أبو ماضي لا يحب ذكر هذه المجموعة من شعره ولا يود اطلاع أحد عليها. ومع هذا قد يعدم ديوان "تذكار الماضي" وجود بعض القصائد والمقطوعات الحسنة النظم الجميلة المعاني التي صدرت عن الشاعر في أخريات أيامه في مصر بعد أن اتسعت ثقافته وزادت مطالعته وتمكن بعض التمكن من أصول اللغة وقواعدها.[3]

---

[1] زهير ميرزا: ايليا أبو ماضي، ص٢٥

[2] المصدر السابق، ص٢٦

[3] نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٢٧

"ديوان ايليا أبو ماضي" (الجزء الثاني من ديوانه الأول)

أصـــدر ايلـــيا أبو ماضي ثلاثة من دواوينه في نيويورك وهي: ديوان "ايليا أبو ماضـــي" الجزء الثاني، الذي طبع في نيويورك عام ١٩١٩م.[١] وهذا الجزء من الديوان الأول يحـــتوى عـــلى مجموعـــة من شعر التأملات والشعر الوطني والشعر القصصي الشعري الغرامي.[٢] وقد كتب مقدمته جبران خليل جبران وأثنى على صاحبه أبلغ ثناء. "تذكـــار الماضي" فيقول جبران في مقدمة الديوان: "في ديوان أبو ماضي سلالم بين المنظور وغير المنظور، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها، وكؤوس تملأه بتلك الخمرة الـــتي إن لم ترشـــفها تظل ظمآنا حتى تمل الآلهة البشر فتغمر ثانية بالطوفان."[٣] وهذا الديـــوان كان مجالا للصراع بين نزعة التطلع الي الجديد، والتعبير عن الحياة الجديدة، ونـــزعة المحافظة على القديم التي تؤكدها في نفس ايليا أبو ماضي اطلاعاته على الشعر العـــربي القـــديم.[٤] وقد ذكر زهير ميرزا في كتابه بعض مظاهر التقليد في هذا الديوان "كالمطـــالع التي تشى بتأثره المباشر بقصائد قديمة، وتقليده للموشحات الأندلسية في مخـــتلف أشكاله وألوانه، والصنعة البديعية والتضمين" وفي كثير من هذا الشعر نحس بالـــنـــزعة التقلـــيدية، وبطرائق الأقدمين في التعبير."[٦] ونرى نزعة التقليد في التحير والصورة في بيته التالي:

---

[1] M.M. Badawi (ed). Modern Arabic Literature, p. 102

[2] عبد الغني حسن: الشعر العربي في المهجر، ص١١٦

[3] نقلا عن: جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٨

[4] أنس داؤد: التجديد في شعر المهجر، ص١٥٥

[5] زهير ميرزا: ايليا أبو ماضي، ص٤٥

[6] المصدر السابق، ص٧٥

جاد الكنانة عني وابل غدق وإن يك النيل يغنيها عن الديم[1]

كما نرى الصور التقليدية في قصيدته بعنوان "نزوة ألم" من هذا الديوان:

ذريني أضطرب في أرض إني رأيت السيف يصدأ في القراب[2]

وبجانب هذه التقاليد بدأت كثير من بذور التجديد، تحاول أن تبزغ وأن تنثر في الديـــوان ثمارهـــا. ولقد نمت هذه البذور فيما بعد في ديوانيه الجداول و"الخمائل" وأعطـــت عطاءهـــا الخصـــب الجميل. ونضجت ثقافة الشاعر الفكرية واللغوية معاً وتمكنت يراعته من تطويع العبارات واختيار الألفاظ لرسم الصور الشعرية، فأصبحت قصـــائده كـــنوزا أدبية تتلاقفها الأيدي وتتغنى بها الألسنة ويستظهرها الطلاب على مقاعد المدرسة.[3]

وأحدث ايليا أبو ماضي تجديداً في الكلمة الشعرية جعلها تتسع لمضامين الحياة الإجتماعـــية والفكرية وللمشاكل النفسية دون أن تخرج من إطار البساطة والوضوح وإنـــه لمن المدهشات أن يكون أعمق الشعراء فكراً أسلسهم بيانا، حتى لتغرينا بساطة شـــعره عـــلى محاكاته ثم تنبينا التجربة بأن محاكاته ضرب من المستحيل[4] ومن أشهر قصـــائد "ديـــوان ايليا أبو ماضي" قصيدة باسم "فلسفة الحياة" التي نالت من الشهرة أوفر نصيب وأطيبه وأوسعه. فهي قصيدته الإيجابية التفاؤلية الشهيرة، سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد فيقول ايليا أبو ماضي فيها:

---

[1] المصـــدر السابق، ص١٦٥، ويجدر بالذكر هنا وقد جمع الأستاذ زهير ميرزا مجموعة كبيرة من قصائد ايليا أبو ماضي في كتابه "ايليا أبو ماضي: شاعر الأكبر" بالإضافة إلى مجموعة أخرى من شعر أبي ماضي هذا إلى جانب الدراسة القيمة التي قام بها زهير ميرزا حول شعر أبي ماضي في كل دواوينه.

[2] المصدر السابق، ص١٧

[3] جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٨

[4] المصدر السابق، ص١٨٨

أيهـــذا الشـــاكى وما بك داء كـــيف تغدو إذا غدوت عليلا

إن شـــر الجناة في الأرض نفس تـــتوقى قـــبل الرحيل الرحيلا

وترى الشوك في الورود وتعمى أن تـــرى فوقها الندى إكليلا

هو عبء عـــلى الحياة ثـــقيل من يظن في الوجود شيئا جميلا[1]

ونجـــد التشاؤم في قصيدته "لم أجد أحدا".[2] والنـــزعة القومية وإيمانه العميق بالعـــروبة في قصيدته "عصر الرشيد"[3] وهي مطولة يمتدح فيها عهده وما شاع فيه من معـــرفة وثراء، وفتوح واسعة عالدة ويستنهض الهمم لاستعادة أمجاد الآباء. وكذلك يعـــبر ايليا أبو ماضي عن فلسفته الإيجابية في قصيدته "بنت سورية"[4] ويثور أبو ماضي على الأغراض القديمة في قصيدته "الفقير"[5] فيقول:

أنا ما وقفت لكى أشبب بـــالطلا ما لى وللتشبيب بـــالصهباء

لا تسألونى المدح أو وصف الدمى إني نبذت سفاسف الشـــعراء

وكذلك قصيدته الأخرى "الشاعر والأمة"[6] فهي قصة أمة يحكمها ملك عادل خلف عليها ابنه فاستبد بها أيما استبداد. كما قال الشاعر أبو ماضي.

كـــان فـــيها شاعر مشتهر ذو قـــواف بينها مشتهره

كـــلما هـــزت يداه وترا هـــزمن كـــل فؤاد وتره

تعس الحظ وهل أتعس من شـــاعر في أمة محتضره؟

---

[1] زهير ميرزا: ايليا أبو ماضي، ص٧

[2] أنظر: المصدر السابق، ص٥٧

[3] أنظر: المصدر السابق، ص٤٧

[4] أنظر: المصدر السابق، ص٦٧

[5] المصدر السابق، ص٧٤

[6] نقلا عن: المصدر السابق، ص٧٥

يقـــرأ الناظـــر في مقلته ثـــورة ظـــاهرة مستتره

وهنا نرى عنصراً جديداً الذي يدخله ايليا أبو ماضي في القصيدة فهو مسئولية الشاعر، فعليه دائما أن يبصر الناس بحقائق الحياة وأن يلتزم جانب الشعب في معاركه الضـــارية مع الحكام المستبدين.[1] وفي قصيدته الأخرى من قصائد الديوان الرائعة تعبر الشـــاعر عن فهمه، لعلاقة الشاعر بالحياة، فهي قصيدته "الشاعر"[2] تسأله صاحبته عن الشـــاعر فيحاول أن يعرفه لها. وقد تحتوى هذه القصيدة على "عنصر الحوار" الذي كـــان نـــادراً في الأشعار العربية القديمة،[3] وهو أحد عناصر التجديد في بناء القصيدة الحديـــثة ولقد عالج أبو ماضي فيما بعد على نحو أروع وأعمق علاقة الشاعر بالحياة، ومســـئوليته عن المجتمع. وهكذا نجد في هذا الديوان المذكور آنفا بذور نزعة التجديد الـــتي اتضـــحت صورها في شعر أبي ماضي حتى أصبح من رواد التجديد في العالم العربي.[4]

ديوان "الجداول"

وأصـــدر ايلـــيا أبو ماضي ديوانه الثاني "الجداول"[5] في عام ١٩٢٧ وطبع في مطبعة "مرآة الغرب" بنيويورك بعد عشر سنوات من إقامته فيها[6] وقد كتب ميخائيل نعيمة مقدمته فبارك شاعريته وأثنى على روحه ثناء جميلا فقال:

والـــذي أحاوله الآن هو القول إني انس قرابة روحية بيني وبين صاحب

---

[1] أنس داؤد: التجديد في شعر المهجر، ص١٦٠

[2] أنظر: زهير ميرزا، ايليا أبو ماضي" ص١

[3] أنس داؤد: التجديد في شعر المهجر، ص١٦١

[4] المصدر السابق، ص١٦١

[5] اعتبر بعض الباحثين هذا الديوان ديوان أبي ماضي الثالث لكنه هو خطأ

[6] جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٩

"الجداول" ما كنت أشعر بمثلها بيني وبين ناظم الجزء الأول والثاني من ديـــوان ايليا أبو ماضي. ترى أتغير أبو ماضي إلى هذا الحد في السنوات الثماني الأخيرة. أم ترانى تغيرت؟ فبين هذه الجداول ما تنسكب معه روحى مترقرقة، مترنمة، مطمئنة، جذلة بنور في عينيها، وجمال على جانبيها. مرحة بحرية لا أرصاد عليها ولا قيود، ومدى لا آفاق لـــه ولا حدود.[1]

ديوان "الجداول" يحتوى على القصائد الجيدة التي تعتبر من عيون الشعر[2] مثلا: "العـــنقاء" و"بردى ياسحب" و"تعالى" و"الطين" و"المساء" و"العميان" و"الطلاسم" وغيرها وتمتاز هذه القصائد بغناها الوافر في الشعور الإنساني، وفي الإحساس بالطبيعة والحـــياة في لطـــف أسلوبها، وبعد خيالها، وجمال صورها. يعد معظم النقاد في العالم العربي ديوان "الجداول" كقمة مساهمة ايليا أبو ماضي في الشعر العربي الحديث عامة في شـــعر المهجـــر الشـــمالي خاصـــة.[3] الأستاذ Roger Allen إن ديوان أبي ماضي "الجـــداول" هو أعظم مساهماته في تطور الشعر الرومانطيقي العربي. وخاصة قصيدته "الطلاســـم"[4] قـــد اشـــتهرت في العالم العربي باسم "لست أدرى". وهي أدهشت المفكـــرين وأعجـــزت المقلديـــن. يقـــول جورج صيدح عن مميزات قصائد ديوان "الجداول" خاصة عن "الطلاسم" لايليا أبي ماضي:

وفـــيه تجلى منتهى نضوجه الشعري. ندر أن يجتمع في ديوان واحد ما

---

[1] مقدمة "الجداول" نيويورك، ص٣

[2] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٢

[3] R.C. Ostle: (ed.) Studies in Modern Arabic Literature, 1975, p. 38

[4] انظر: أبو ماضي، الجداول، ص٨٩

اجتمع في الجداول من القصائد الرائعة، الغنية بالشعور الإنساني، الممتازة بجمـــال الصـــور وعذوبـــة الأنغام ناهيك عن جلال المواضيع وطرافة التخيلات... قصيدة واحدة من هذه القصائد تكفى لتخليد شاعر، فما بـــالك بقصيدة الطلاسم، التي أدهشت المفكرين وأعجزت المقلدين؟ لا يســـأل ســـائل اليوم من هو "شاعر المعانى المبتكرة والذهنيات البعيدة الغور" في هذا العصر.[1]

في ديوان "الجداول" بلغ ايليا أبو ماضي قمة مجده الشعري، فقد جاء فيه بعدد كـــبير من القصائد الرائعة، الملأى بالغنى والدسم والجمال، فكان ثروة كبيرة للرابطة القلمـــية وللشـــعر المهجري، وكسبا عظيما للشعر العربي.[2] فهذا الديوان يمثل حياة الشاعر وشعره في سنيه الأولى من انضمامه إلى الرابطة القلمية.[3] يعلن ايليا أبو ماضي فيه مفاهيمه الجديدة للشعر العربي الحديث مخاطبا قرائه[4] فيقول في مطلعه:

لستَ مني إن حسبـــ ... تَ الشعر ألفاظا وزنا
خالفَتْ دَربك دربي ... وانقضى مـــا كان منا
فـــانطلق عني لئـــلا ... تقتني هما وحـــزنًـــا
واتخذ غيري دفـــيقا ... وسوى دُنياى مغـــنىْ

وقال ميخائيل نعيمة، الشاعر المهجر الشمالي وفيلسوفه وناقده، عن شعر أبي ماضي في ديوانه "الجداول":

---

[1] جورج صيدح: "أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٩

[2] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٩

[3] نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٢٩

[4] M.M. Badawi: "A Critical Introduction of Modern Arabic Poetry" p. 190

[5] ايليا أبو ماضي: الجداول، ص٩

فاذا أكثره شعر يتألق فيه الفن الجميل، وتتزاوج الألفاظ والمعاني، وتجرى الأحاسيس والأفكار صافية صادقة، وتتساوق الظلال والأنوار، وترتعش القـــوافي ارتعاشـــة الخيال يتسامى عن التعقيد، ويتعشق الابداع، ويقيم لاستقلاله وزنا.[1]

يعرف أبو ماضي كيف يقترب من الحياة بعين الشاعر وفكر الفيلسوف. فلا يذهب بعيداً في التفتيش عن موضوعاته التي موفورة في نفسه كل ما حواليه.[2] وتكبر مقدرتـــه على الافصاح عن شعوره كما يقول الشاعر في ختام قصيدته "العنقاء" التي هي من أكثر قصائده غموضا وأقربها الرموز الصوفية:

عَصَرَ الأسى روحي فسالت أدمعا فلمحتها ولمستها في أدمعي
وعلمت حين العلم لا يجدى الفتى أن التي ضيعتها كانت معي[3]

وقصيدة "الطين" تدور حول معنى واحد ينفذ إلى مزاج منذ الأبيات الثلاثة الأولى منها ولكننا نضن بيت واحد من أبياتها السبعة والخمسين وذلك لأن في كل بيت صورة جديدة تزيد في قيمة قبلها وبعدها. وعندما نتأمل هذه الصور المتعاقبة لا نشعر بأقل ملل بل نرغب في الزيادة، فكأننا في متحف من الفن العالي. فيقول أبو ماضي فيها:

نسى الطين ساعة أنـــه طين حقيـــر فصال تيها وعـــربد
وكسا الخز جسمه فتـــباهى وحوى المال كيسه فتمـــرد
يا أخي، لا تمل بوجهك عني ها أنا فحمة ولا أنت فرقد[4]

---

[1] ميخائيل نعيمة: مقدمة "المجموعة الكاملة لمؤلفاته" ج٧، ص٤٧٨

[2] المصدر السابق، ص٤٧٩

[3] نقلا عن: ميخائيل نعيمة، المجموعة، ج٧، ص٤٧٩

[4] المصدر السابق، ص٤٧٩

وقصـــيدة "الطلاســـم" من "الجداول" من إحدى المطولات الشعرية لايليا أبو ماضـــي. هي مجموعة تأملاته وفلسفته عن حقيقة الحياة والوجود. ويبلغ مجموعة هذه المطولـــة واحداً وسبعين مقطعاً[1] يتألف كل منها من أربعة أبيات وكل مقطع ينتهي دائمـــا بعـــبارة "لست أدرى" ويستهل الشاعر طلاسمه بالتساؤل الحائر عن أفكاره وتأملاته وعن أسرار وجوده.[2] كما يقول ميخائيل نعيمة:

> ... وهي (الطلاسم) القصيدة التي يكشف فيها الشاعر عن موقفه تجاه الحياة والموت وهو وقف من يدرى بأنه لا يدرى. والقصيدة تملأ أربعا وعشرين صفحة من الديوان تتعاقب مشاكل الوجود تعاقب الصور على الشاشـــة البيضـــاء ولكـــنها صور فيها من حسن الذوق في الاختيار والـــتلوين، ومن براعة العرض، ورشاقة الحركة، واللباقة في خلق الجو المناســـب لكل واحدة منها ما يجعل الناظر اليها أن يقف طويلا ويتأمل عميقا، فلا يزعجه الوقوف، ولا يرهقه التأمل، بل يستشعر متعة فنية لا توازيهـــا غير متعة الوقوف على أسرار المشكلات التي يعرضها الشاعر الواحدة تلو الأخرى.[3]

يقول الشاعر ايليا ابو ماضي في مطلع قصيدته:[4]

---

[1] ذكر ايليا الحاوي في كتابه هي يشتمل قصيدة على نحو ستين مقطعا يتداول فيها الأسئلة التي تشير حيرته من أمره وأمر الحياة والخالق وما بين ذلك من تنازع حادٍّ بين قيم الخير والشر. راجع: ايليا الحاوي ايليا أبو ماضي: شاعر التساؤل والتفاؤل، ص٧٥

[2] الناعورى: أدب المهجر، ص٢٧٧

[3] ميخائيل نعيمة: مقدمة المجموعة الكاملة، ج٧، ص٤٨٠

[4] ايليا أبو ماضي: ديوان الجداول، ص٨٩

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيتُ

ولقد أبصرتُ قدامي طريقا فمشيتُ

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

وهـــذه القصـــيدة الـــتي تبين عجز أبي ماضي عن أن يستوعب أسرار الحياة والوجود وعمق حيرته أمام غموض الكون.[1] فهذه القصيدة اكسبته شهرة عظيمة غير أنها ليست من أشهر وأبرز قصائده من وجهة جودتها الفنية.[2]

والواقـــع أن ايلـــيا أبا ماضي صاحب حكمة وزهد وحرص شديد جداً على المســـاواة يكاد يبلغ به الاشتراكية أو ماهو أبلغ من الإشتراكية في إلغاء الفروق بين الـــناس. كما نجد في قصيدته الرائعة بعنوان "الطين" أنه بلغ من ذلك ما لم يبلغه كثير مـــن الشعراء المحدثين في العالم العربي.[3] وكان ايليا أبو ماضي فوق هذا كله وقبل هذا كله صاحب شك لا يؤمن بشيء ولا يطمئن إلى شيء وقصيدته "الطلاسم" خير مثال لحيرتـــه وللضيق والاشفاق منه والاضطرار اليه مع ذلك.[4] والشاعر في جميع مجالات "المصير" حائر، أي حائر في نفسه، وحائر في أمر أمسه، وحائر بالتالي في يومه وغده، كأنما يمشي في ظلمات متراكم بعضها فوق بعض: فيقول الشاعر:

يا ليل! أين النور؟ إلى تائه مر ينبثق ام ليس عندك نور[5]

---

[1] Ismat Mahdi, "Modern Arabic Literature", p166

[2] R.C. Ostle "Studies in Modern Arabic Literature", England, 1975, p. 38

[3] طه حسين: حديث الأربعاء" الجزء الثالث، ص١٨٩

[4] المصدر السابق، ص١٩٨

[5] ايليا أبو ماضي: ديوان الخمائل، ص١٦

والشك يأخذ به من كل جانب، شك في كل شيء وفي كل أمر. وقد رأت الأنسة فدوى طوقان أن الشاعر متميز بأنه ظنا لمدرسة "اللاأدريين (Sceptic school) منتســـب منها أنها مدرسة الشك التي يراد منها "المذهب القائل بأن معرفة الحقائق في هـــذا العـــالم لا يمكن الوصول اليها، أ يشك في الوصول اليها".[1] ومن هنا كان هذا المذهـــب "هادماً للفلسفة، لأن الفلسفة ليست الا السعى لمعرفة حقائق هذا الكون.[2] وعلق الدكتور طه حسين،[3] على أوزان وألفاظ في ديوان الجداول قائلا:

> ... إذا قصـــدنا إلى نقـــد هذا الديوان من جهة ألفاظه وأوزانه فنحن بعـــيدون كـــل البعد عن مثل هذا الرضا، ونحن مضطرون إلى كثير من التحفظ، وإلى كثير من السخط، وإلى كثير من الضحك أحيانا. فالشاعر لا يحفل بالموسيقى، لا في وزنه، ولا في قوافيه، ولا في ألفاظه. لعل أوزان الشعر تختلط عليه أحيانا فيلائم بينها ملاءمة لا تستقيم. وقصيدة "الطين" التي كنا نثنى منذ حين على معانيها وحسن تصويرها للمساواة، من أراد الشعر العربي قافية وأنباء عن السمع والذوق، ولعل عنوانها كان يحتاج إلى شيء من الذوق.[4]

---

[1] نقلا عن: زهير ميرزا، "ايليا أبو ماضي" ص٨٨

[2] المصدر السابق، ص٨٨

[3] وُلـــد طـــه حسين عام ١٨٨٩ لأب مصري من قرية في صعيد مصر على مقربة من مدينة مغاغة. حفظ القـــرآن الكريم في صباه والتحقق بالأزهر وعكف على الأدب العربي والغربي ثم التحق بالجامعة الأهلية اتيح لـــه الاطلاع على الأدب اليوناني والفرنسي واللاتيني اطلاعا عميقا اثناء قيامه في باريس وعين أستاذ الأدب العـــربي في كلـــية الآداب في الجامعة الأهلية ثم عمدا لها وانتخب وزير المعارف في ١٩٥٠م وتوفى في عام ١٩٧٣.

[4] الدكتور طه حسين: حديث الأربعاء، ج٣، ص١٩٨ وما بعدها.

ديوان "الخمائل"

أصدر ايليا أبو ماضي ديوانه الثالث "الخمائل" عام ١٩٤٠. فلقى من الرواج والترحيب حتى أعيد طبعه وهذا الديوان يشتمل على سبع وخمسين قصيدة ومن قصائده الجيدة وأهم منها "الشاعر والسلطان الجائر" و"الدمعة" و"اشربوا" و"الشباب والحب" و"الغابة المفقودة" و"الاسطورة الأزلية" و"الفقير" و"ابتسم" و"كن بلسما" و"الشاعر في السماء" وغيرها.

فمع إسراف الشاعر حينا في النزعة إلى التقليد، لم يستع هذا الشعر أي يخفى خصائص نفسه، بل كشف عن هذه الخصائص وكشف عن حيرة أبي ماضي بين التشاؤم والتفاؤل، ومحبته للطبيعة، ودفاعه عن قومه العربي وقوميته، ومفهومه للشعر على أنه وسيلة لخدمة الحياة والأحياء واتخاذه الحوار والقص في الشعر. وقد تطورت هذه المميزات واتضحت في ديوانيه "الجداول" و"الخمائل" الذين أصدرهما في غضون اتصاله بحركة التجديد الشعري، تحت "الرابطة القلمية" في نيويورك.[1] ولذلك فإن من المغالاة أن نسم كل شعر لهذا الديوان بالتقليد والابتذال، وأن نجرده من كل جديد في المعنى وفي التصوير كما فعلى ميخائيل نعيمة عندا قال عن ايليا أبو ماضي:

> كان قبل أن باشرت مقالاتي النقدية في "الفنون" و"الشائح" وقبل أن نشرت قصيدة "النهر المتجمد" و"أخى" ينظم الشعر وأقصى ما يصبر إليه أن يأتي شعره محاكاة لشعر البارودى وشوقي وحافظ ومطران من المحدثين، أو لشعر البحترى وأبى تمام والمتبنى من القدامى. فكان ينظم القصيدة من خمسين بيتا وأكثر على قافية واحدة، وفي موضوعات مبتذلة ومن غير أن يأتي بأي جديد في المعنى وفي التصوير،... ولكى تعرف أي

[1] أنس داؤد: التجديد في شعر المهجر، ص١٦١

انقـــلاب هو الانقلاب الذي حدث في شاعرية أبي ماضي بعد اتصاله بالثورة على الجمود والتقليد حسبك أن تتصفح ديوانه (ديوان ايليا أبو ماضـــي-الجزء الثاني) فأول يطالعك فيه رسم لتاجر لبناني في نيويورك تـــبرع للشـــاعر بتكالـــيف طبع الديوان، وذلك سجل لـــه في صدر الديـــوان، "إهداء" لا يختلف في نسجه بشيء عن شعر المداحين الذين كانوا يقفون على أعتاب الأمراء والخلفاء.[1]

وقد تطورت بذور التجديد عند ايليا ابو ماضي في هذين الديوانين الى قمم ما وصـــل الـــيه من إلحاح على التفكير في قضايا الحياة وحقائقها ومشكلات الكون، وصـــراع نفسي بين التشاؤم والتفاؤل، وحب للطبيعة واستلهامها الكثير من روائعه السابقة، وعرض كل ذلك في شعر عن طريق الأقصوصة، والحوار بينه وبين الأشياء، أو الرمز إلى أفكاره من خلال مشاهد الطبيعة أو عوالم الحيوان.[2] نقد جورج صيدح[3] ديوان "الخمائل" قائلا:

فدعـــم تولـــيد الشهرة بالطريف، وكان لأزهار الخمائل روعة تضاهي روعة الأنغام في الجداول ولكنها لا تزايدها إنما امتداد لجداول والعاطفة في خمـــائل جدد ربيع الشعر وشيها وضوع طيوبها. جميع هذه القصائد (الخمـــائل) قـــد لا نسمع فيها خرير الجداول الشادية ولكننا نشعر أن مطالع النور مساقط الندى وموطلات الجمال صارت أقرب إلى أبصارنا

---

[1] ميخائيل نعيمة: سبعون، ص١٥١ وما بعدها.

[2] أنس داؤد: التجديد في شعر المهجر، ص١٦٤

[3] هـــو شاعر مهجري. وُلد في دمشق ونشأ في لبنان. هاجر إلى فنـــزويلا، عاش حينا في الأرجنتين ومات في باريس. ومن آثاره "ديوان صيدح" و"أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية." وله شعر بالفرنسية والأسبانية.

من ذي قبل.[1]

ولا نجد في ديوان الخمائل شيئا جديداً من الروح والأسلوب والخصائص الفنية الـــتي نجدها في ديوان "الجداول"، كما قال عيسى الناعورى: "فهناك كانت الشاعرية تتدرج في تطورها حتى وقفت في النضج عند قمتها في الديوان الثالث، فلم تعد بعده خطـــوة جديـــدة يخطوهـــا الشـــاعر إلى الأمام".[2] ولذلك لا نجد في ديوان الخمائل الخصائص الفنية التي وجدنا بها في د يوان "الجداول" ولكننا نجد شيئا جديدا هو شعر المناســـبات الشخصية في "الخمائل" أكثر من "الجداول" وبلغ إلى عدده فيه نحو اثنتى عشـــرة شعراً.[3] ونجده اثنتين في الجداول كما نجد عدداً من أروع القصائد الإنسانية والوطنـــية من قصائد المناسبات الشخصية في ديوان "الخمائل" مثل "بين مد وجزر" و"كن بلسماً".[4]

ونلاحـــظ أن ايلـــيا أبا ماضي بين جميع أعضاء الرابطة القلمية أكثرهم نظما وأطولهـــم في شـــعره نفســـا،وأكثرهم اســـتخداماً للقافية الواحدة، وأوفرهم نظما لـــلمطولات الشـــعرية[5] فله ثلاث مطولات مشورة منها قصيدة "الطلاسم" المعروفة بـــــ"لست أدرى" لها ٢٨٤ بيتًا، وقصيدة "الأسطورة الأزلية" كانت لها في الأصل ١٤٢ بيـــتا ولكنها في ديوان "الخمائل" ١٣٧ بيتاً فقط؛ وقصيدة "الشاعر والسلطان الجائر" لها ٧٩ بيتاً.

ونـــلخص هـــنا خصـــائص لشعر أبي ماضي في ديوانيه هذين الديوانين هي:

---

[1] جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا، ص١٨٩

[2] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٣

[3] المصدر السابق، ص٣٧٣

[4] زهير ميرزا :ايليا أبو ماضي، ص٦٧٧

[5] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٣

شـــعوره الإنســـاني، وعمق إحساسه بالطبيعة، وتفاؤله الممتع، وحبه للحياة والجمال وشعره الاجتماعي في الحيوية الشعرية كما ذكر عيسى الناعورى:

> والـــذي يعـــرف مدى هذه الخصائص في شعر أبي ماضي، وغناه بها، يعرف أن أبا ماضي هو خير مثال للشاعر الحق بكل معانيه، فهو شاعر في روحه: وفي أفكاره وعواطفه وخيالاته، وشاعر في أسلوبه: في ألفاظه وتعابيره وصوره... أن الشاعر الحق هو رسول يعلم الحياة، وتظهر في شعره صور الحياة والمجتمع الإنساني زاخرة بالعواطف، جياشة بالحيوية، دافقـــة بالجمال والرؤى الساحرة؛ وأن الشاعر الحق هو رسالة الحياة الكبرى، يقرأه الناس على اختلاف مشاربهم وأذواقهم وطبقاتهم، وعلى تـــباعد أوطانهم وأقوامهم، ويشعر كل منهم بأنه يرى فيه صورة نفسه، وصـــورة عواطفه، وتعبيراً عن آماله ونوازعه. ويصطبغ شعره بالصبغة الفلســـفية، الإجتماعية والروحية معا، فهو إنساني مثالي، يحب البشر، ويحب الحياة، يستهدف سعادة المجتمع، ويريد تحبيب الحياة إلى الأحياء ويدعوهم إلى تنقية العمر من الأشواك والأدران.[1]

ديوان "تبر وتراب"

قـــد جمعـــت في هذا الديوان القصائد التي نظمها أبو ماضي بعد نشر ديوانه الخمـــائل. صدره عن "دار العلم للملايين" في بيروت بعد وفاته ثم أعيد طبعه مراراً. ويقـــال ان الشاعر هو نفسه الذي أعده للنشر، ولا يعد هذا الديوان تطويراً لفن أبي ماضي، ما بلغ اليه في ديوانيه "الجداول" و"الخمائل" بل يعتبر بعضه نكسة في فن هذا

---

[1] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٤

الشاعر الكبير.[1]

يحتوى هذا الديوان على أربع مجموعات من شعر أبي ماضي هي:

المجموعة الأولى: تعد امتداداً لشعره الذي يتغنى فيه بالطبيعة، ويحن إلى وطنه، ويتذكر صباه، ويدعو أبو ماضي إلى التفاؤل بالمستقبل وحب الحياة واغتنام الفرص السانحة وهذه المجموعة تمثل معظم شعر الديوان.

المجموعة الثانية: وفيها قصائد توجه بها لمديح يبدو في كثير منه التكلف والإحساس بثقل ما يفرضه عليه المجتمع في مثل هذه المناسبات وغير ذلك من المناسبات التافهة[2] أو ما تضطره إليه مجاملات بعض الأصدقاء الذين لهم بعض المنوع المادية عليه مما تشير اليه القصيدتان اللتان خص بهما الشاعر صديقه مسعود سماحة.[3]

المجموعة الثالثة: وهي تشمل على مراثيه وبعضها صادق النبرة في الحزن على من فقده من رفاقه الشعراء وبعضها واضح فيه التكلف والمجاملة وروح الانسياق مع تأدية واجب اجتماعي وهو العزاء في صحفى كما يقول أبو ماضي في مطلع إحدى قصائده هذه:

يا أيها الشعر أسعفنى فأرثيه ويا دموع أعينيني فأبكيه

بحث لي عن معز يوم مصرعه فلم أجد غير محزون أعزيه[4]

غير أن هناك قصيدة في هذه المجموعة تخطى بها أبو ماضي حدود المناسبة وتفكر في موضوع هام نعنى موضوع علاقة الشاعر بالحياة، وأهمية وجوده ونوع رسالته.

---

[1] قال مصطفى البدوي في كتابه "الأدب العربي الحديث" ص١٠٥ طبع ديوان "تبر و تراب" طبع عام ١٩٦٠م، راجع: البدوي، الأدب العربي الحديث، ص١٠٥

[2] M.M. Badawai (ed.), Modern Arabic Literature, p. 105

[3] الدكتور إحسان والدكتور نجم: الشعر العربي في المهجر، ص١٦٢

[4] ايليا أبو ماضي: تبر وتراب، ص١٩٢ وما بعدها

المجموعـــة الـــرابعة والأخيرة: وهي تحتوى على قصائد أبي ماضي التي قالها في حفلات تكريمه، ردا على كلمات وقصائد المحتفلين به، شاكرا لهم، متعرضا في بعض الأحيان إلى فهمه للشعر ورسالته في الحياة كشعر المناسبات.

والواضـــح من هذا البحث أن الديوان "تبر وتراب" لم يضف شيئاً جديداً إلى فـــن أبي ماضـــي، ولا يعتـــبر تطويـــراً للمراحل التي بلغ اليها في ديوانيه "الجداول" و"الخمائل".

أ) أبو ماضي: شعره بين التفاؤل والتشاؤم

كـــان إيليا أبو ماضي شاعرا متفائلا، ومتأملا الا أنه لم يكن يصدر عن رؤيا عامة للمصير البشري، تمكن لتجربته وتوغل فيها. "وشعره أدنى إلى التأملات الجميلة التي تتهافت عندما نسلط عليها أضواء الحقيقة وهو يطعم الإنسان خبز التفاؤل، لكنه يلفيه في النهاية وقد مات جائعا، متصورا.[1] ولعل المهاجر الأمريكي لم يعرف في القرن العشرين شاعراً كان أكثر تفاؤلا ودعوة إلى الإقبال الحياة من إيليا ابي ماضي.[2]

وإن ايلـــيا أبـــو ماضي قد تلون وتقلب بين الاقبال على الحياة والنفور منها، وأراد في كـــلا الحالين أن يفلسف موقفه فيعطي مبررات للتشاؤم، ومبررات للتفاؤل وان شعره الذي تتجاور فيه قصائد التشاؤم والتفاؤل، مما يدل على أنها نوبات مزاجية حادة كانت تعتريه تبعا لظروف خارجية عنه، و لم يكن تشاؤمه أو تفاؤله نتيجة وقف فكـــري صلب يمتد. بجذوره في أعماق البراهين العقلية الثابتة. ولعل ذلك التقلب بين التشاؤم والتفاؤل كان خيراً للشعر، وثروة للفكر. ونجد عند أبي ماضي إحساسا حاداً

---

[1] ايليا حاوي، ايليا أبو ماضي: شاعر التساؤل والتفاؤل، ص١٢٩

[2] الدكتور شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ط٧، القاهرة، ص١٨١

بصـــراع الخـــير والشـــر في صـــدره، وتناقضات الميول النفسية، والرغبات الحسية والروحـــية. فـــأبو ماضي لم يدرك الإزدواج في النفس وفي الحياة غاية تقنع، ولذلك انتهى باعلان لا أدريته في مثل هذه الأمور، بل انتهى إلى أنه لا يدرك كنه ذاته، ولا شيئا من ماضيها ومن أين جاءت، ومستقبلها وإلى اين تسير كما قال:

أنا لا أذكر شيئا عن حياتي الماضية

أنا لا أعرف شيئا عن حياتي الآتية

لي ذات غير أني لست أدرى ماهيه

فمتى تعـــرف ذاتى كنه ذاتـــى؟

لست أدرى[1]

وقد مثل أبو ماضي في قصيدته هذا صراع الموقفين (بين التفاؤل والتشاؤم) في ذاته وهو وإن كان مال إلى الموقف الثاني حين دعا فتاته إلى أن تستكشف في الظلمة ما يتميز بها من أحلام ورغائب، ونأخذ الحياة من غير أن تفكر في الامها، وتنتهب ما فيها من جمال قبل حلول الفناء[2] كما قال أبو ماضي في قصيدة الشهيرة "المساء".[3]

مات النهار ابن الصباح فلا تقولى: كيف مات؟

إن الـــتأمل فـــي الحياة يـــزيد آلام الحـــياة

فدعى الكآبة والآسى. واسترجعى مـــرح الفتاة

قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهللا

فـــإن ميل أبي ماضي هذا الذي يظهر في أكثر من قصيدة من قصائده لهو من

---

[1] ايليا أبو ماضي: ديوان الجداول، ص١٢٦

[2] جوزيف الهاشم: المفيد في الأدب العربي، ج٢، ص٥٣١

[3] عبد الغني حسن: الشعر العربي في المهجر، ص١٣٦

قبـــيل "صور التفاؤل" الأبله أو المتباله القائم على التمويه الخداع الباطل. كما يقول الدكتور احسان عباس والدكتور يوسف نجم:

> لأنـــه تفاؤل لا يصوّر الشيء على حقيقته، ثم يواجهه بعزيمة نفسية وإنما يـــرى الأشـــياء كما يحب أن يراها، أو يرى الناحية التي تعجبه فيها، ويتغاضـــى عما عداها، ويزخرف لصاحبه مواضع القبح والألم، وهذا شيء أقرب إلى الخداع النفسي منه إلى التفاؤل الصحيح. وهو يعترى أبا ماضـــي حين يتحدث عن الطبيعة والغاب، ويحاول أن يزين كل شيء يـــراه ويأبي أن يقبل الحقائق بكل ما فيها. وهو أيضاً تفاؤل لذّى، يرى الحياة الحقيقة في أن نأخذ ما يجيء ولا نحاول التفكير فيه "إن التفكير في الحياة يزيد أوجاع الحياة"[1]

والدليل على صحة هذا الزعم أن أبا ماضي كان ساعات يقظته العقلية يحس بالهوة التي تفصل بينه وبين الحقائق، فثار أبو ماضي على التخدير وينكر للوهم.[2] كما يقول في قصيدته الرائعة "بردى يا سحب":[3]

كـــل نجـــم لا اهـــتداء به ... لا أبـــالى لاح أو غـــربا
كـــل نهـــر لا ارتـــواء به ... لا أبـــالى ســـال أو نضبا
اسقنى الصهباء ان حضرت ... ثم صف لي الكاس والجبا
لـــيس يـــروينى مقالك لي ... إنهـــا العقـــيان منسكبا
إن صـــدقا لا أحسّ بـــه ... هـــو صدق يشبه الكذبا

---

[1] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ص ١٤٠

[2] جوزيف الهاشم: المفيد في الأدب العربي، ص٥٣١

[3] ابو ماضي: الجداول، ص١٥

والظاهـــر أن حياة ايليا أبي ماضي نفسه كانت وادعة سهلة، فلم تشتد عليه الحـــياة مثلما اشتدت على جبران وزملائه، وكانما كانت إرادة الحياة عند أبي ماضي أقوى من أن تفت فيها هذه العاصفة فنفضها عن نفسه، وإن بقيت آثارها عالقة بخياله ومشـــاعره، فهو مهما فكر في آلام الإنسانية وفي المجهول وألغازه وفي الموت وأسراره لا يفضـــى إلى اليأس الصفى بل تلمع أقواس التفاؤل دائما في سماء وجدانه، حتى في أحلك اللحظات وأشدها قتمة وعبوسا.[1] ويشعر أبو ماضي في الأحوال النفسية بالألم الإنســـاني، ولكـــن لا يلبث أن يرتد إلى تفاؤله، وكأنما كان إلتقاؤه بجبران وزملائه ومعيشة معهم بمثابة ظلم شديد على شاعريته، لتزيد أفكاره في الكون والطبيعة وآلام الإنســـانية، وليتجـــلى لـــه التفاؤل في أجنحته الزاهية اللامعة. فأبو ماضي يتأمل في الغـــاب والطبـــيعة وهموم البشر ولكن دون أن يتورط في تشاؤم مرير، بل إنه يندفع اندفاعاً إلى تفاؤل مضيء تشرق به نفسه. وبذلك زخر تفاؤله بفكر عميق. والحق أنه قـــرأ رباعيات عمر الخيام، من أشهر الشعراء في اللغة الفارسية، وأثرت في قبله تأثيرا كـــبيرا. فكثير من أفكاره يجرى في شعره، وتفاؤلهما يتطابق في كثير من جوانبه كما يقول الدكتور شوقي ضيف:

> ... إن تفـــاؤل أبي ماضي تجرى فيه فلسفه الخيام في رباعياته، كما تجرى فـــيه نزعة جبران الرومانسية هو ورفاقه، وأتاح كله لتفاؤله ثراء في المعانى والمشـــاعر والأحاسيس، فهو لا يتفاؤل تفاؤل البله ولا تفاؤل من يأخذون الحياة من ظاهرها المضيء ويمضون دون تفكير في جوانبها المظلمة.[2]

"إن التفاؤل نزعة انسانية عميقة الجذور في نفس الشاعر وان كان يعلوها

---

[1] الدكتور شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص١٨٣

[2] المصدر السابق، ص١٨٣

بين الحين والحين غبار الزمن فيخلع على بهائها وجمالها مسحة من الكآبة والحزن والأســـى![1] وفي أثـــناء هذه النـــزعة التفاؤلية العميقة التي سبق ذكرها نلمع أن الشـــاعر قادر كل القدرة على أن يعيش الحياة التي يريدها في إطار من التفاؤل، ولـــو اقتضـــاه الأمر التجرد من احساسه لما كان ذاك الا أهون الأمور وأسهلها وأكثر ها يُسراً.

ومثيل هذا الشاعر الكبير الذي يدعو إلى الحياة في عالم الرؤى والاحلام بعيداً عـــن عالم الاجسام والآلام جدير بأن يضفى على حياة الانسان، الغارق في الشرور والآثام والتعاسة والشقاء، لونا من ألوان البهجة والمرح والهدوء والراحة![2] وخير مثال عـــلى نزعته الانسانية العميقة التي نزعت إلى إبراز ما في الحياة من جمال روعة وبهاء قصيدته الجميلة "فلسفة الحياة" التي ذكرنا آنفاً. والفكرة المسيطرة على هذه القصيدة هـــو أن نأخذ المتعة من الحياة دون تفكير فيها ولا في آلامها، ويحاول أن يخدر حسنا بالضباط كما يصنع عمر الخيام في رباعياته.[3]

إن رومانســـية جبران وزملائه أثرت في تفاؤل أبي ماضي، فإن هذا التفاؤل يصـــدم بتشاؤمهم وبتفكيرهم العميق في آلام الشر مع التأمل في الطبيعة والكون، واتخذ ذلك عنده في بعض قصائده شكل صراع نفسي بين الإحساس بهموم الحياة والإحســـاس بمـــتعها على نحو ما نجد في قصيدة الجيدة "المساء" التي يرمز بها إلى الكهولة[4] وفيها نجد فتاة تسمى "سلمى" ترنو إلى غروب الشمس وقلبها زاخر بالقلق

---

[1] زهير ميرزا: ايليا أبو ماضي، ص٧٩

[2] المصدر السابق، ص٨٠

[3] نفس المصدر، ص٨١

[4] د. شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص١٨٥

والهـــم فـــإن الضحى، بل النهار جميعه، فرَّ من تحت عينها وغاب عن بصرها. وفيها يقول أبو ماضي:

السُحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبـــدو خلفها صفـــراء عـــاصبة الجبين
والبحر ســـاجٍ صامت فيه خشوع الـــزاهـــدين
لكنمـــا عيناك بـــاهتتان فـــي الأفـــق البـــعيد

سلمى... بماذا تفكرين؟
سلمى ... بماذا تحلمين؟[1]

وقد أفصح عن حيرة الشاعر وعن اغراق تلك الفتاة في همومها.

وقـــارن الدكـــتور احســـان عباس ويوسف نجم قصيدة "المساء" لأبي ماضي بقصـــيدة الشاعر الروسي بوشكين في قصيدته "أمسية شتاء" وفي ذلك دليل على تأثر أدب النهضة بالآداب الأجنبية فقال الاناقدان:

وحين نبلغ إلى هذا الحد ونستعرض قصيدة "المساء" لأبي ماضي يلوح لنا ما يرجع بالذاكرة إلى قصيدة بوشكين التي عنوانها "أمسية شتاء" لا لأن موضـــوع القصيدتين واحد، فكثير من الشعراء نظموا قصائد في المساء، إنمـــا لشـــيء آخر هو هذه الصورة المشتركة بين جلوس سلمى ترقب الغروب، وجلوس نانى في قصيدة بوشكين؛ غير أن سلمى فتاة في مقتبل العمر، ونانى هي مربية عجوز.[2]

ويشبه أبو ماضي الفتاة 'سلمى' في حيرتها بالسائح في القفر، ضلّ عن الطريق

---

[1] نقلا عن: جوزيف الهاشم والآخرون، المفيد في الأدب العربي، ص٥٢٤

[2] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ص ١٤١

وهـــو التشبيه الذي يسوقه بوشكين في السحابة، فيقول جوزيف الهاشم مع الآخرين عن قصيدة "المساء":

.. إنهـــا من خلق أزمة نفسية متكررة عند الشاعر وقد اتبع فيها منهجا خاصـــا محافـــيه صورة القصيدة التقليدية التي تميزت بالتفكك وانعدام الوحدة في الغرض أو الموضوع ليجلو الصورة الجديدة للقصيدة العربية الحديـــثة الـــتي تتضمن موضوعا يقسم إلى مراحل، ومع ذلك يكون في جملته وحدة عضوية منقسمة نامية ذات تخطيط هندسي. وقد تأثر فيها بالآداب الغربية، ووقف إلى جانب الطبيعة، شأن الرومنطيقين، واعتمد شأن الرمزيين على الموسيقى الداخلية والصور الموحية التي تتعدى نطاق الحـــواس إلى عالم النفس ووقع الصور فيها، وأجاد مثلهم التوقيع المنغوم المهمـــوز وحقق الانسجام بين الألفاظ والحالة التي يمثلها ونوع القوافي وجددهـــا بـــتجدد المعـــاني وأحسن تقليب الكلام بين الخبر والانشاء والاســـتفهام والاستدراك والتخبير والنفي وكان بذلك كله مبدعا من مبدعي شعراء عصر النهضة الحديثة.[1]

وكذلك يحاول أبو ماضي أي يخدر حس سلمى إزاء هموم الحياة وخطوبها في قصيدته "فلسفة الحياة"[2] فيطلب إليها أن تنسى ما هي فيه من كهولتها وأن لا تذكر ما مضى من شبابها وتمتع نفسها عن طريق حسها المخدر بالطبيعة وغير الطبيعة. ولعل أبـــرز قصـــائده في ديوان "الجداول" سروراً بالحياة هي قصيدته بعنوان "تعالي" وفيها مزج أبو ماضي فرحة الحب بفرحة الخمر والطبيعة كما يقول فيها:

---

[1] جوزيف الهاشم والآخرون: المفيد في الأدب العربي، ص٥٣٥

[2] ايليا أبو ماضي: ديوان ايليا أبو ماضي، ص١٠ وما بعدها

تـــعالـــى نتـــعا لمـــاها كلون التبر أو أســـطع

ونسقى النرجس الواشى بقايا الراح في الكاس

فلا يعـــرف مـــا نحن ولا يبـــصر مـــا نصنع

وقصيدته "ابتسم" كانت فلسفة الابتسام نحو الحياة فتدعونا لننتهز فرصة الحياة قـــبل ان نصـــير إلى لا شيء إلى تراب في تراب. وما يزال يردد أن الإنسان الكئيب يصبغ الحياة بكآبة نفسه وأفكاره السوداء التي تلح عليه، فالتشاؤم والتفاؤل مرجعهما إلى الإنســـان.[1] ورأينا أبا ماضي في ديوان "الخمائل" كما رأينا في ديوان "الجداول" يكـــرر أن العدم والفناء نهاية الحياة وأن حريا بنا أن ننهب متع دنيانا وملذاتها نهبا قبل أن تفلت فرصة العمر من أيدينا ودائما متعها وملذاتها الحب والخمر والطبيعة فيقول:

أخلق لنفسك بالمدامة جنة في الأربع المهجورة الأدراس

الحب فيها بـــلبل وحميلة وندى وأضواء على الأغراس

إن التفاؤل الذي يجرى في شعر أبي ماضي تنفذ فيه من حين إلى حين لحظات حـــيرة وقلق، فهو لا يتفاؤل في الحياة عن غير بصيرة وفهم، بل هو يفكر فيها وفيما يلوّن بعض جوانبها من تشاؤم وسواد[2] حتى لنراه يقرن الصفحتين والمنـــزعين ويجعلها صـــراعا بـــين القلـــب والعقل كما في قصيدته "بين مد وجزر" فالقلب يفجر ينابيع السعادة في النفس، والعقل يفجر ينابيع الشقاء، ويضغط عليه الحزن كما يقول:

لا تسألوني اليوم قيثارتى قيثارتي خشب بلا أنغام

---

[1] المصدر السابق، ص١٨٨ وما بعدها

[2] المصدر السابق، ص١٩٠ وجبور عبد النور في الموازنة بين أبي ماضي وجبران قائلا فأبو ماضي خليط من التشـــاؤم والتفاؤل شاك لا يؤمن الا بوحى عقله وجبران وإن تعالت من بعض مقاطعه غمغمات السوداوية والشك، وغلبت الظلال القائمة على ألواحه الفنية: د عبد الكريم الأشتر ، النثر المهجري، ص٥١

بحث أبو ماضي عن وسيلة المعرفة في الحياة، وحيرة بين قوى النفس المختلفة، بـــدون استقرار واعتداد بواحدة منها، فحينا ينهى عن الاعتماد الحس والعقل، ويرى أن الحقـــيقة تند عن معطياتهما، وأن الثقة في الحس والعقل التي تؤدى بسعادة البشر، وحينا آخر يستهدي بالعالم الفيزيائي الذي رآه، ويرى في فتنته وجماله مدعاة للرضى عن الحياة ونسيان آلامها، هكذا انتقل أبو ماضي بين الاعتداد بمعطيات الحواس وبين رفض عالمها نشرانا للسرور في عالم الخيال. وكذلك انتقل أبو ماضي بين الاستمتاع بالحياة والإعراض عنها في نوبات مزاجية حادة لا زمان لها. كما يقول أبو ماضي:

الحـــس مجلـــبة الكآبـــة والآســـى قـــم نـــنطلق من عالم الاحساس
وأرى الســـعادة لا وصول لعرشها الا بأجـــنحة مـــن الوســـواس
يـــا أيهـــا الســـاقي أدركاســـاتها كمصـــابيح الرهبان في الأغلاس
واصـــرع بـــها عقل النديم ولبـــه ما نغص الحاسى كعقل الحاسى[1]

ويعلق أنس داؤد على نزعتي أبي ماضي هذه فيقول:

> وقد اضطرب أبو ماضي في اختيار أي الطريقين... فدعا إلى الاستمتاع بالحياة حينا، ودعا إلى رفض الحياة حينا آخر... ولم يقم دعامة مذهب نظـــرى في السلوك الانساني من خلال شعره- وان كان قد أقام دعائم نظـــرية خاصـــة بـــه في تفسير حياته الانسان الفرد وموقفه من الكون ومصيره المتلاشي في عناصر الوجود.[2]

ونلاحـــظ أن أبـــا ماضي لم يجزئ ذات الانسان إلى نفس وجسد فلم يشب بينهما صراع في شعره، ولم يجد فرصة للتفريق بينهما في مواجهة العدم والخلود. فقد

---

[1] أبو ماضي: الجداول، ص٩٨

[2] أنس داؤد: التجديد في شعر المهجر، ص٢٣١

اعتبر أبو ماضي الذات الإنسانية وحدة واحدة لا تنفصم، فلا نفس ولا جسد بل هو كيان حي متفاعل سيواجه مصيراً واحداً وهو التفاني في عناصر الوجود.[1]

ب) إيليا أبو ماضي: شعره القصصي

قد عالج الكثير من شعراء المهجر الشمالي الشعر القصصي لاعطاء موعظة انسانية أو إجتماعية وأشهر من برع فيه ايليا أبو ماضي ومن شعره القصصي "الأشباح الثلاثة" و"الحكاية الأزلية" و"الشاعر والسلطان الجائر" و"أمينة آلهة" و"الشاعر في السماء" و"الشاعر والأمة" و"المجنون" وغيرها. إن إيليا أبا ماضي بين جميع أعضاء الرابطة القلمية أكثرهم نظما وأطولهم الشعرية. فله ثلاثة شعر قصصي مشهور هي: قصيدة "الطلاسيم" المعروفة "لست أدري" ولها ٢٨٤ بيتا وقصيدته "الأسطورة الأزلية" كانت لها في الأصل ١٤٢ بيتا وقصيدته "الشاعر والسلطان الجائر" لها ٧٩ بيتا. وفي شعره القصصي كثيرا من الغني والدسم. وكثيرا من الفن والجمال وكثيرا من الحكمة والعبر الثمينة. فقصيدة "الأشباح الثلاثة" فهي من جيد الشعر من وجهة معناها وأغراضها وفلسفتها، فاراد أبو ماضي أن يصور فيها أطوار الحياة من الطفولة والتساب والشيخوخة. فعرض الشاعر نفسه طفلا وشابا وشيخا وتحدث إلى نفسه في هذه الأطوار حديثا كله حكمة وعظمة، ولكنه اختار لها وزنا قلما يستعمله الشعراء العرب وهو البحر المتدارك ويرى فيها طه حسين الضعف الموسيقي الذي يدعو إلى الضحك حين يجب الاعتبار وكذلك يجد الاغلاط النحوية التي لا يحتمل من شاعر مجيد مثل ايليا أبو ماضي.[2]

---

[1] نفس المصدر، ص٢٣١

[2] الدكتور طه حسين: حديث الأربعاء، ط٣، ص٢٠٠

إن أبـــا ماضي شاعرا رومانطيقيا سلبيا، وإن الانسجام بين الشكل والمضمون في قصـــيدته يحقق وحدة عضوية.[1] إذا كان أبو ماضي يطالع القارئ بحيرته لم يألفها في تقدير هـــذا الـــنمو العضوي أو فلسفة غربية عنه التي تضع الغاب في مقام مثالي، فإن أبا ماضي يقـــترب كثيراً من نفسية ذلك القارئ عندما يتقمص شخصية الأمة العربية، فيما يشغلها مـــن فلسفة، ويتمثل روحها الفلسفي تمثيلا دقيقاً، ويحي نظراتها في الكون، فيتجاوب معها تجاوباً عميقا،[2] فيتحدث أبو ماضي في قصيدته "العنقاء" عن السعادة، ذلك الاكسير الذي كـــان مداراً لآمالها وأفكارها على مدى عصور طويلة وكذلك يصور عن نظرته الزهدية الـــتي تنتظم مفهوماتها الاجتماعية حول الغنى والفقر. ويمعن أبو ماضي في تصوير مشكلة المـــوت ويربط بين الحياة وفكرة القدر ويفسر هذه المشكلة في قصيدته بعنوان "الاسطورة الأزلـــية" حكمة الغيب الذي تحاول أن تثور عليه أحيانا، فيظل أقرب منهما إلى تمثيل الأمة العربـــية في روحهـــا الفلسفي، وفي نظراتها الاجتماعية.[3] مثلاً قصيدته "الطين" فخلاصتها الفلســـفة الزهدية عند المسلمين والمسيحين. وقد حاول أبو ماضي أن يعطى هذه الفلسفة لونا جديداً عندما لمس فكرة الزهد من زاوية الطبيعة واقر بعجز الإنسان أمامها واستخلص من هذه المعانى فكرة المساواة بين الناس.[4]

وغـــير أن أبـــا ماضي يصدم روح امته العربية بفلسفته النسبية التي ينظر من خلالهـــا إلى الألوهية والزمن والسماء. وقد يصدم الاتقياء بالطريقة التي يظهر بها الله مـــتحدثا أو ضـــاحكا أو مشاركاً الناس في عواطفهم. ويحس الناس أولا من فلسفته

---

[1] M.M. Badawi: "A Critical Introduction of Modern Arabic Literatwure", p190

[2] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ص ١٥١

[3] المصدر السابق، ص١٥١

[4] المصدر السابق، ص١٥١

بانسجام غير واع بينهم وبينه ويؤخذون ثانيا بروح التسامح فيعدون نوعا من التعبير الشـــعري ويـــرون في شعر أبي ماضي صورة شرقية متقمصة، لا روحهم الفلسفي فحســـب، بل حكمتهم العامة في ثوب شعري جميل، ويجدون ما يجول بنفوسهم من أمثال يتردد صداه في شعره "فلديهم في ذخيرة وافرة من الحكمة التي تقال على ألسنة الحـــيوانات، فاذا وجدوا أبا ماضي يذوب حكمتهم المركزة في صور شعرية كاملة، شعروا بالارتياح. ومعنى هذا كله أن أبا ماضي قد تقمص أيضاً النفسية المشرقية التي تـــرتاح إلى الحكمة وما فيها من عبرة.[1] وافتن أبو ماضي في التعبير عن العبرة في كثير مـــن قصائده مثلا قصائده: "الضفادع والنجوم" و"التينة الحمقاء" و"الغدير الطموح" و"الغـــراب" و"الحجر الصغير" و"الأبريق" وغيرها. وفي كل قصيدة من هذه القصائد تحلـــيل لعـــبرة من العبر. وقد لون جبران وأبو ماضي الرمزية الإيحائية بلون جذّاب، واحتالان حتى يجعلا التعليمية مقبولة بوضعها في شكل فني. غير أن أبا ماضي لم يسلم من هذه التعليمية القائمة على التفرير المحض في بعض قصائده وبوجه خاص في بعض مواقفه الإجتماعية من مشكلة العُجب والغني والدعوة إلى الطبيعة وحثه على التفاؤل، فنجده في تلك المواقف واعظا لا فنانا.[2]

وفي قصـــيدة "الشاعر والملك الجائر" وغيرها نرى أن الشاعر لم يزل عند أبي ماضـــي مثالا رومانتيكيا، متفرداً على بنى البشر بعنصر الخيال، وهو العنصر المقدس عـــند الرومانتكين. غير أن أبا ماضي لا يعيش في برجه العاجى بل يحس بآلام أمته، وهو مرجعها الذي يطبّ لأدوائها"[3] وأهوى خصائصه ليست في مشاركته الإجتماعية

---

[1] المصدر السابق، ص١٥٣

[2] المصدر السابق، ص١٥٣

[3] المصدر السابق، ص١٦٢

لبنى قومه، بل قدرته على رؤية الجمال المستكن الذي يدقّ على نظر الناس العاديين أو خلـــق الجمـــال في مواطن عارية منه. ونجد في قصيدة "الشاعر والملك الجائر" هذه السمات واضحة تمام الوضوح.

فنعتبر قصيدة "الشاعر والملك الجائر" علامة كبرى على شعر أبي ماضي القصصي الذي يشمل بالنـــزعة الرومانطيقية والروح الدرامية. وقد تشارك قصيدة "القصة الأزلية" في بعض خصائصها وتساوى بالشكل ولكنها تنقص عنها بقلة التموجات في الأدوار.[1]

وخلاصـــة القول، أن قصيدة "الشاعر والملك الجائر" صورة جامعة لخصائص أبي ماضـــي القصصية ولأخطائه القائمة على نزعته الرومانطيقية. ولذلك قرأنا تطور أفكـــاره عـــن "الشـــاعر" لأن الشـــاعر المجرد هو مثله الأعلى. وكذلك وقصيدته "الطلاســـم" فإنهـــا أعلق بفكرة أبي ماضي ولكنها أضعف دلالة على المبنى الشعري عـــنده، وفـــيها عيوب أصيلة. وتتمثل في قصيدته وحدة عضوية تنتهى في كثير من الاحيان بالفناء، ولكنها كاملة النمو وان كانت سلبية في طابعها. لعل أبا ماضي من أوضح الشعراء اعتماداً على الشكل القصصي وأقدرهم على خلق الأسطورة وأوفرهم نسيباً من الروح الدرامية. وهو بموضوعه وفلسفته وكثير من نظراته الاجتماعية يتمثل روح أمـــته، ويصـــوّر روحها الإجتماعية في جوانب كثيرة من فلسفتها وحكمتها وآرائهـــا. إن اضطراب أبي ماضي في النظرة الفلسفية لم يزعزع من رسوخه الشعري وكان في شعره يحس دائما بان الوحي على وشك ان يفارقه، ولكنه كان يستثير هذا الوحي من هذا الشعور بالأزمة النفسية، ويسعى لمد أجل الإبداع الفني بالاعتماد على حـــدة العاطفة وعلى نوع من التفاؤل وعلى الشعور الدقيق بلمعان الرؤى ومباينتها للواقع. وغير أن نفسية أبي ماضي صافية قليلة التعقيد، وشعره واضح وضوحا ساطعا

[1] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ص ١٦٨

في أكـــثره ولعله خير نموذج الإخلاص في موضوع معين في لحظة معينة. غير انه مع هـــذا كلـــه سيظل أبرز مثل في الشعر العربي الحديث على التوفيق الموفق بين الفكرة الفلســـفية والصورة الشعرية وخير شاهد على تحقيق وحدة القصيدة، وعلى الاعتدال والتوسط بين العناصر الشرقية والمؤثرات الغربية.[1]

[1] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٧٤

٣- إيليا أبو ماضي: أسلوبه

كـــان أســـلوب أبي ماضـــي الشعري أسلوباً مشرقا جميلا كما يرى عيسى الناعوري:

... أسلوبه الشعري فهو شرق ومغر كروحه الشاعرة، نقرأه فنشعر بأننا في حاجـــة إلى أن نـــنفض عـــن انفسنا غبار الآلام والشقاء والتشاؤم، لنســـتقبل الحـــياة بثغور مشرقة، نشيطة، وأرجل متخفزة الانطلاق في ميدان السعادات مع فراشات الربيع، وغزلان القفار، وبحناجر مستعدة للغناء المرح مع ضفادع الغدران، وطيور السماء، وجنادب الحقول.[1]

يعـــد بعـــض الـــنقاد أن أبا ماضي هو كبير الشعراء المهجريين لأنه أوسعهم حضـــورا في ضمير عصره. ونسبته هذه تنمى إليه الطبائع الفنية التي خص بها هؤلاء الشعراء بل تدعى أنها تكاملت فيه من دون سواه. والواقع أن أبا ماضي اكتسب إلى المهجر بحكم البيئة التي أقام فيها وتنازع معها، كما "أنه لازم اسلوب المهجريين الذي يطغى عليه الانفعال وتتعاظم فيه الأفكار بحيث لا يحفل الأديب بصقل الأداء وتثقفه، الا أنـــه لم يعان معاناة الغربة والشقاء العميمين اللذين اتسم بهما ذلك الأدب لأن أبا ماضي نزع منـــزع التفاؤل.[2]

وأسلوب أبي ماضي يتمثل على عناصر كبرى كما يلي:

---

[1] عيسى الناعورى: "أدب المهجر، ص٣٧٤

[2] ايليا حاوي: ايليا أبو ماضي، ص٣

(١) الطبائع الفنية

وظـــيفة الانفعال والعقل والخيال: تولد الانفعال في قصيدته "السماء" وغيرها، ومـــن مشـــهد المساء المتراكض الغيوم ومشهد الفتاة الواجمة، اليائسة، فحرك العقل بالتســـاؤل، دون أن يخضـــع لـــه، ويستحل إلى دراسة منطقية باردة. وهذه العلاقة الوثـــيقة بين الانفعال والعقل حولت التجربة إلى مجموعة من التأملات والتساؤلات الممضـــة، الحائرة لم ينصرف فيها الشاعر إلى ترهات الغلو.[1] فالشاعر يعترى المشهد بانفعالـــه، ثم يرفده بعقله، لكنه ليس ذلك العقل المتمالك لروعه، المتفرس في الأشياء بـــلا مبالاة، بل إنه يعانى وقعها وتتحد فيه الذات بموضوعها بحيث يغدو عقلا انفعاليا وجدانيا. فيقول أبو ماضي:

لكن رأيتك في المساء وضعت رأسك في يديك

وجلست في عينيك ألغـــاز وفي النفس اكتئاب[2]

فالـــرأس يرمـــز هنا إلى العقل المتفكر، المنفعل، في آن واحد، هو الذي يعمّق الانفعالات ويتعمّق بها.وكان الخيال يحلّ في الانفعال والعقل جميعا، ويؤدى للانفعال والعقل الصور النفسية والحسية.

(٢) طبائع الصورة

ولا يـــلجا أبـــو ماضي كثيراً إلى الصور المجازية إلا حين يريد أن يرسم جواً خاصـــا يكون فيه التعبير الخيالي أقدر على التأثير من الأسلوب الحقيقي، وقد استعان بـــتلك الصور الخيالية في مطلع قصيدة "المساء". والصورة الحسية ذات المرمى النفسي

---

[1] ايليا الحاوي: ايليا ابو ماضي، ص١٣١

[2] نقلا عن: المصدر السابق، ص١٣٠

أي يقتبس الشاعر من الطبيعة بعض المظاهر الواقعية، يلتقطها ويختارها بحسه وانفعاله، كأنها صور فعلية وحسية. فذكر الشاعر "أن السحب تركض في السماء ركض الخائفين، والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين، والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين، أم خفت أن يأتي الدجى الجاني ولا تأتي النجوم."[1] ليؤكد ما في الطبيعة من جو قائم يثير في النفس أشجانها الكامنة. لأن ذلك هو مفتاح القصيدة والمعنى الذي استطاع من خلاله أن ينفذ إلى ما أراد من دعوة إلى التفاؤل والإقبال على الحياة. وأبو ماضي يلجأ إلى الصور المجازية مرة أخرى في قوله: "بالأرض كيف هوت عروش النور عن مضباتها"[2] لأن اختفاء النور كان من أهم ما أثار الحزن في نفس الفتاة، فهو يريد أن يبرز قوة إحساسها باختفائه. "وحين أراد أن يبرز المفارقة بين حال سلمى في الضحى وحالها في المساء لجأ إلى الخيال مرة أخرى "فلقد رأتيك في الضحى ورأيته في وجنتيك" فمثل بذلك شدّة إشراقها وتفاؤلها في الصباح ليقارن بينهما وبين حزنها وتشاؤمها في المساء.[3] ويلجأ أبو ماضي إلى الصورة الشعرية البسيطة التي تعتمد على ما تستدعيه في نفس السامع من مظاهر مادية قادرة على الإيحاء حين يقول:

لكن وجدتك في المساء وضعت رأسك في يديك

وجلست... في عينيك ألغاز وفي النفس اكتئاب.

(٣) أسلوب العرض والتساؤل

يجرى أبو ماضي في المقطعين الأولين من قصيدته "المساء" على أسلوب العرض

---

[1] المصدر السابق، ص١٣١ وما بعدها

[2] نقلا عن: المصدر السابق، ص١٣٢

[3] جوزيف الهاشم: المفيد، ص٥٣٣

والتســـاؤل. فـــابو ماضي يعرض صورة للطبيعة ولتلك الفتاة، ثم يتسائل عن أسبابها وبواعـــثها، ذاكـــراً أحلام الصبا وأشباح الكهولة والدجى الذي لا نجوم لـــه، وفي المقطع الثالث من هذه القصيدة يعرض الشاعر لأمر هواجسها ثم يتسائل بها من خلال الأرض والمروج والعصافير، ويخلص من ذلك كما قال:

لا فرق عند الليل بين النهر والمستنقع...

وهـــذا السيّاق ينم النـــزعة التأملية التي ترتقى من المظاهر إلى الخواطر، ممثلة واقع العالم الخارجي ومكشفة لمعانيه وما اليها.

(٤) طبائع التشبيه:

قلما يقف الرومانطيقون عند حدود التشبيه الحسي القائم على معادلة واضحة الأطـــراف، بل إنه لينطوى، غالبا على نزعة الاستقراء والاستطلاع. مثل: "السحب تـــركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين" ولقد شبه السحب في سيرها بمن يعدو خائفا ووجه التسبه استقرائى وتعليلي.

(٥) طبائع الاستفهام

وهـــو حركة بيانية تعبر عن واقع نفسي أو فكري، ينم عن اللبس والحيرة، أو عـــن الإلحـــاف والإلحـــاج، وهو يبعد التجربة عن السرد والملل والرتابة. وقد كثر التســـاؤل في هـــذه القصيدة لنـــزوعها منـــزعا تأمليا، تساؤليا: كما قال الشاعر: "ســـلمى... بماذا تفكرين، سلمى بماذا تحلمين"؟ وهذا التساؤل جاء كنتيجة للأفكار التي عرضت في الأبيات السابقة، وقد أفصح عن حيرة الشاعر وعن اغراق تلك الفتاة في همومها.

وكـــان أبو ماضي أصفى الشعراء والكتّاب اللبنانيين والسوريين في المهجر لغة إذ أن إقامـــته في مصـــر قد صقلت لغته وهذا الصفاء في لغته قد أعجب "كمغمير" وزمـــيله الأســـتاذ طه الخميري.[1] فهو الشاعر المجدد لا يملك أكثر من خمسين قصيدة يرددها الناس، ويتصايح النقاد من حولها بالاعجاب.[2] وليس في شعره أدوار متدرجة، الا ان اتصـــاله بالرابطة القلمية جعل في شعره دورين متفاوتين، أي دوراً قديما ودوراً جديداً. فكانت اتصال أبي ماضي بالرابطة القلمية خيراً على شعره في أكثر مظاهره، لـــولا أنـــه قـــلّ اهتمامه بالعبارة، ولكن "اخطاءه انما هي أخطاء العارف لا أخطاء الجـــاهل.[3] وكان شعره بعد انضمامه بالرابطة القلمية أقرب إلى الأسلوب الخطابي منه إلى أي اسلوب آخر.[4] وكان أبو ماضي يحاول أن يحرر شعره من الاسلوب القديم في نهـــج شعراء الرابطة القلمية الآخرين. وأهم ما نلاحظه في شعره، بعد اتصاله بالراطبة القلمـــية الأســـلوب الحواري، وهذا ناشئ عن واقعيته، إذ نراه يخاطب الناس يعرفهم ويـــأخذ منهم ويأخذون منه كل ذلك في شعر متماسك موسيقي عذب ذي هدف ويلي الأسلوب الحواري في شعره: التأمل في الكون والحياة ونكران المادة والدعوة إلى الروحانـــيات وعالم الطبيعة، ونضيف إلى كل ذلك دعوته إلى التفاؤل وحب الحياة والابتسام حتى للألم.

وخلاصـــة القـــول، يترد اسم أبي ماضي في دنيا الضاد مصحوباً بالإعجاب الكـــبير بمـــا لـــــه من قصائد روائع قد تتناقلها الصحف والمذياعات ويتسابق إليها

---

[1] Taha Khameri and Prof. Kampffmeyer, "Leaders in Contemporary Arabic Literature", Hambourg, and see also, John A. Haywood, "Modern Arabic Literature", p. 175

[2] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ص ١٤٤

[3] المصدر السابق، ص١٧٥

[4] نادرة جميل سراج: شعراء الرابطة القلمية، ص ٣٤٢

الناشـــرون وتـــتغنى بهـــا الألسنة ويستظهرها الطلاب لأنها كنوز أدبية غنية بالصدق والجمال ونابضة بالشعور والحياة. وإن أبا ماضي قد وصل إلى منتهى نضجة الشعري في ديوانيه "الجداول" و"الخمائل". وأما "الجداول" فهو غني بالقصائد الجيدة التي تعد من عيون الشعر. فهذه القصائد تمتاز بغناها الوافر في الشعور الانساني وفي الإحساس بالطبـــيعة والحـــياة وفي لطـــف أسلوبها وبُعد خيالها وجمال صورها خاصة قصيدته "الطلاســـم" قل أن اجتمع في ديوان شعر واحد عدد مثلها وله مثل خصائصها القوية وروحهـــا الحساسة السامية. ولذلك لا غرابة في أن يتردد اسم أبي ماضي في الوطن العـــربي والمهجـــر الأمريكي بملء الإعجاب وفي أن يتبارى الناشرون في طبع ديوانه وتوزيعه مرات. فتنفد كل نسخة حال ظهورها في الأسواق.

تتـــلخص مميزات أبي ماضي الشعرية في ديوانيه الجداول والخمائل في شعوره الإنســـاني وعمـــق إحساسه بالطبيعة وتفاؤله وحبه للحياة، وشعره الإجتماعي وفي الحـــيوية الشـــعرية. والذي يعرف مدى هذه الخصائص في شعر أبي ماضي وغناه بها يعرف أن أبا ماضي هو خير مثال للشاعر الحق بكل معانيه. فهو شاعر في روحه أي في أفكاره وعواطفه وخيالاته وشاعر في أسلوبه أي ألفاظه وتعابيره وصوره. ويطصبغ شـــعره بالصـــبغة الفلسفية والإجتماعية والروحية معاً فهو انساني مثالي يحب البشر ويحب الحياة ويستهدف سعادة المجتمع.

ولعل أبرز ما يحبب شعر أبي ماضي إلى النفوس ثلاث نواح منه. الأولى ناحيته الإنسانية والثانية دعوته إلى حب الحياة والثالثة استلهامه الطبيعة في كل شعره مما يلون شعره بأجمل الألوان أصفاها ويرسم فيه أبرع الصور وأنقاها. يضاف إلى هذا ما يتمتع بـــه الشاعر أبو ماضي القدرة الفائقة على التلاعب بالعواطف في سائر شعره الباقي كشعر الحنين والشعر الوطني والشعر التأملي وبقية الفنون الشعرية الأخرى.

٤- آراء النقاد على شعر أبي ماضي

يعتبر بعض النقاد أن ايليا أبو ماضي هو كبير الشعراء المهجريين لأنه أوسعهم حضوراً في ضمير عهده ولطبائعه الفنية.[1] وعاش ايليا أبوماضي يتنقل روحيا في مرحلة حياته الأربعة، نعني مرحلة طفولته في لبنان ورحلة شبابه في مصر ومرحلة تثقفه في سنسناتي أوهايو ومرحلة عمله في نيويورك[2] فهو يتجول بفكره وعاطفته في آفاقها دون أن يطمئن. وهذا التنقل الفكري والعاطفي من نوعه الذي أساء إلى انسجام أسلوبه في التفكير وفي التعبير. وحمل الناقدين محمد يوسف نجم واحسان عباس علي تصوير أبي ماضي "فاقدا" ذلك النوع من "التدرج المتطور في شعره" وتصوره في صراع مع قديم لم يستطيع أن يخلص منه، وجديد لم يملك أن يذوب فيه، دون أن يلاحظ أثر الأجواء والمناخات المتخلفة التي تغيرت فيه شخصيته كإنسان، وهي في طور التكون. وعلّق الناقدان احسان عباس ويوسف نجم على شاعرية أبي ماضي وخصائص شعره قائلين:

> ... وفي الدواوين الأربعة، التي تداولها الناس من شعر هذا الشاعر، مزيج متباين من القدم والجدة، في الطريقة الشعرية وفي الشكل العام للقصيدة؛ وصور تمثل أقصى انطلاق بلغته الشاعرية، إلى جانب صور

---

[1] ايليا الحاوي: ايليا أبو ماضي، شاعر التساؤل والتفاؤل ص٥

[2] كما قال عبد اللطيف شراره كان لأبي ماضي أربعة أوطان: لبنان موطن طفولته، ومصر موطن شبابه، وسنسناتي أوهايو موطن ثقافته ونيويورك موطن عمله. راجع إلى: عبد اللطيف شراره، "ايليا أبو ماضي" ص ١٧

عاديـــة مبتذلة. وعلة هذا كله، ليست في أن الشاعر تتفاوت في حياته مواقـــف الابداع الفني فحسب، لسبب نفسي أو لآخر، بل إن مرجع ذلـــك، فـــيما نتصوره، إلى أن أبا ماضي كان صلب العود في الاتجاه القـــديم، حـــين واجهته مؤثرات جديدة، وان ساعات تحلله من تلك القبضـــة القوية – قبضة القديم – كانت ساعات قليلة، ... فالمسؤول الأول إذن، عـــن فقدان التدرج المتطور في شعر هذا الشاعر، هو طغيان الاتجـــاه القـــديم على نفسه. أما المسؤول الثاني فهو قوة شخصيته، أو عـــنادها القوى، حين آثر أن يستقل بمذهبه، على أن يذوب في الدعوة الجديدة التي حمل لواءها جبران، كما ذاب- أو كاد- شاعر مثل رشيد أيوب.[1]

هناك نتلمس شاعرية أبي ماضي ومميزاته التي كفلت لشعره قوة التأثير. وينقد الـــنقاد الكـــثيرون شارعية أبي ماضي وخصائص شعره. فبعضهم يدرس أبا ماضي وشـــاعريته وخصـــائص شـــعره ويرون أن القوة الفلسفية في شعره تلمع أبا ماضي وبعضهم الأخر يختلفه قلة اكثرات أبي ماضي بالعبارة.[2]

وكذلك أن فريقا ثالثا ما يزال ينظر إلى قصيدته بيتا بيتا فيحلل موقع لفظة هنا ولفظة هناك، أي أن لفظة شعره خارجة على أصول النحو، وتلك عبارة من صياغة الأقدمـــين أصبحت ممجوجة لكثرة ما لاقتها الالسن. وهناك نقاد أخر يتحدثون عن محســـنات لشـــعر أبي ماضي رداً لسيئات عن غير. وأبرز من هؤلاء النقاد من يرون الـــنغمات الحزيـــنة في شـــعره صورة للتجديد عند الشاعر، مأخوذين بسحر التيار

---

[1] د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم: الشعر العربي في المهجر، ١٩٦٧، ص١٣٥ وما بعدها

[2] المصدر السابق، ص١٤٤

الرومانطـــيقي الذي خلفه أدب المهجر الشمالي بوجه خاص وراءه في الشعر العربي الحديث، ظانين أن هذه النـــزعة الرومانطيقية التي تغمر حياتنا في الموسيقى والأغاني والشعر وطريقة مواجهة الحياة، وكذلك فهي تميزت أبا ماضي تفردته.[1]

إن المعجبون غارقون بحلاوة النغمة في شعره ولذة الغنائية والرقة، فهم بعيدون عـــن أن يـــروا في أبي ماضي شاعراً جديراً بالإعجاب والتقدير لابد لنا إذن، من الن نـــتوجه إلى الذين لا يرون الشعر لذة موقته وإنما يرونه فنا تعبيريا ينقل حقائق الحياة وأحـــوال الـــنفس الإنسانية على نحو خاص يبرز شخصيته صاحبه.[2] فيعلق الدكتور احسان عباس والدكتور يوسف نجم على شعر أبي ماضي ومؤثراته قائلين:

> ... وشعر أبي ماضي نقطة التقاء للمؤثرات الشرقية والغربية ويكاد فعل هذه المؤثرات يكون متعادلا لا يطغى واحد منه على الثاني، وشعره أيضاً فاتحة لما يمكن ان نسيمه شعرا حديثا في النهضة الأدبية. ومن الغريب أن الشـــعر الـــذي جاء من بعده حاملا هذا الاسم، قد تعثر كثيرا وراتطم بصـــخرة القديم ارتطاما شديداً فلم يثبت لها، وإذا كان شعر أبي ماضي فاتحـــة الشعر الحديث"، فليس معنى هذه فيه ضعف البداية وترددها، بل يكاد يكون أقوى مظهر في الشعر الحديث كله حتى اليوم.[3]

وعلى كل حال، يصح القول بلا جدال أن ايليا أبو ماضي كان شاعر الرابطة القلمـــية كما كان جبران أديبها وفيلسوفها، وميخائيل نعمية كاتب الرابطة القلمية

---

[1] المصدر السابق، ص١٤٤

[2] نفس المصدر، ص١٤٥

[3] المصدر السابق، ص١٤٥

وناقدهـــا الفـــنان. وهـــؤلاء الثلاثة كانوا متقاربين في مواهبهم الإبداعية.[1] وقد تأثر ميخائـــيل نعـــيمة كـــثيراً بأفكار جبران في 'الأخوة الإنسانية'، و'وحدة الوجود'، والفلسفة الروحية و'تناسخ الأرواخ' وغيرها. وإن ايليا أبا ماضي قد استقل بشخصية شـــعرية قوية، وقد تأثر أبو ماضي أحيانا "بوحدة الوجود" عقيدة جبران الكبرى، في بعض قصائده، ولكنه لم يتخذها مذهبا فكريا مثل جبران ونعيمة.[2] وكان رشيد أيوب وندرة حدادها شاعري المهجر ولكنهما لم يصلا من قوة الموهبة واستقلال الشخصية اللتان بلغمها أبو ماضي وإن يكن لكل منهما شعر رقيق وكان هناك نسيب عريضه، الشاعر الثاني في الرابطة القلمية بعد أبي ماضي كان لـــه طابع خاص وشاعرية لطيفة، وقصائد إنسانية وتأملية جميلة. ولكنه لم يبلغ مكانة أبي ماضي في سعة الأفق، وصناعة العـــبارة، ووفـــرة الحيوية والحرارة، وبُعد الخيال وجمال الصور من الطبيعة، وصدق الشعور في معالجة من حياة المجتمع.[3]

---

[1] عيسى الناعورى: أدب المهجر، ص٣٦٧ وما بعدها

[2] المصدر السابق، ص٣٦٨

[3] المصدر السابق، ص٣٦٨